

القسم الثالث

بدوى والفلسفة الغربية

obeikandi.com

obeikandi.com

الأخلاق بين الخطابة والنقد الأدبي ودور أرسطو وعبد الرحمن بدوي فيها

د.مدحت الجيار

obeikandi.com

(١)

اجتهد الدكتور عبد الرحمن بدوى فى التراث الفلسفى العالمى بعامته، واليونانى منه بخاصة. وأعطى لأرسطو حظاً كبيراً من اهتمامه الفلسفى بنشر فن الشعر وفن الخطابة بتحقيق خاص به^(١). يضاف لجهود الباحثين الآخرين فى هذين الكتابين المهمين، اللذين أثرا النقد الأدبى بتأثيراتهما المباشرة حتى عصر النهضة العربية والأوروبية، وتأثيراتهما غير المباشرة فيما جاء بعد عصر النهضة.

ولقد تركزت العيون على كتاب الشعر الأرسطى، لأنه ألصق بتراثنا الشعرى والخطابى. ولهذا قلب كتاب الشعر الأرسطى النقد العربى، وحوله من نقد ذوقى، لغوى، إلى نقد بلاغى منظم، يفرق بين الباب والفصل، والوحدة والفصلة، عند تأليف المؤلفات النقدية. بل ساهم بشجرة فورفورىوس فى تنظيم وحدات كل باب وفصل وفصلة، وأعطى خبرة حضارة كاملة (مصرية - شرقية - يونانية) إلى المؤلف النقدى، ومعلومات مهمة عن الأغراض والأساليب وطرق المحاكاة وكيفياتها وأدواتها. وبسبب هذا التركيز فقد كتاب الخطابة بريقه وتأثيره المرجو منه، فى حين أنه من الموروثات المؤثرة فى ثقافتنا ومؤلفاتنا العربية، ومن الواضح - أيضاً - أنه أثر فى نقد الشعر تأثيراً مباشراً، ويظهر هذا فى كلام نقادنا العرب القدامى خلال القرن الثالث والرابع والخامس للهجرة، خاصة وأن كتاب الخطابة لا يفهم بدون كتابى الشعر والمنطق الأرسطيين. وقد قدمهما عبد الرحمن بدوى محققين، ومعلقاً عليهما.

ويعنى هذا، أن التأثير الخاص بكتاب (الخطابة) انصب - فى الغالب - على مضمون النصوص وأفكارها، مع العلم بأن ما وصل إلينا منه جزء لا يذكر بحقيقة هذا الكتاب الذى قيل عنه إنه يحوى عشرين جزءاً. ومع هذا التقصير قدم نشره المتاح من «الخطابة» خدمة جليلة لمراجعة دوره فى النقد الأدبى بخاصة.

وينقسم كتاب الخطابة (طبعة ١٩٥٩ - مكتبة النهضة تحقيق عبد الرحمن بدوى) إلى ثلاث مقالات: تتحدث الأولى عن مقولات فلسفية أخلاقية عديدة كانت ذات تأثير على الفكر الأخلاقى العربى منها: الخير والشر والنافع والضار، الفضيلة والرذيلة،

المدح والذم، الحسن والقبح، العدل والظلم، وهى ثنائيات ضدية سيطرت على الفكر النقدي. كما تحتوى المقالة الثانية على مجموعة من القيم (الأخلاقية) المرتبطة - أيضاً - بسلوك الناس فى واقعهم مثل: الغضب، والهمة، والنقمة، والحسد. وهى مقولات تقع بين طرفى هذه الثنائية الضدية وتصلح كحواضر للفعل. وهذه (المقولات أو القيم الأخلاقية) شكلت مضامين قصائد الشعراء المادحين والهجائين والرائثين، فقد انقسمت أغراض الشعر العربى بين المدح والهجاء، وتوسعت دائرة (المدح) حتى شملت (المدح والثناء والغزل والوصف والحماسة والفخر) بينما وقف الهجاء وحده، يمثل عكس المدح (الذم)، ليعطى الجانب الثانى من الثنائية الضدية السابقة فى الفكر والشعر والنقد والسلوك!

ويلاحظ أيضاً أن بعض النقاد قد وضعوا خصائص وشروطاً للمدح والهجاء (وما يشملها من أغراض) وفرقوا بين مدح (الحاكم) ومدح (الفقيه والقائد) ومدح من هو أقل منهما، كذلك وضعوا شروطاً (للهجاء أو الذم) بحيث يستطيع الشاعر أن يتكسب دون خوف من هذا الحاكم العربى البصير بالكلام ودرويه، ودون أن يتجاوز فيغضب الحاكم أو المدوح بعامة عليه. وكل صفات المدح (المقولات أو القيم) والذم كذلك، تعود إلى هذه المقولات الأرسطية. الأمر الذى خلق تواشجاً بين المقولات الأرسطية والمقولات النقدية، والمقولات الشعرية عند العرب، وخلق وسطاً نقدياً وإبداعياً وفكرياً تعمل فيه الثقافة والفنون بل العقائد أيضاً.

أما المقالة الثالثة: فتحتوى على كلام دقيق ومهم فى الأسلوب والوسائل وأجزاء الكلام التى تؤدى إلى إيصال هذه المقولات سالفة الذكر. ومن هنا، نستطيع القول إن: كتاب الخطابة قد أضاف أكثر - من كتاب الشعر - على القصيدة العربية، وعلى نقد الشعر العربى وبلاغته، ولهذا يستحق كتاب الخطابة الأرسطى اهتماماً خاصاً، لتأثيره المهم، كما يحتاج عبد الرحمن بدوى هنا إلى تحية لمجوده فى تحقيق كتاب الخطابة بخاصة (رغم وجود تحقيق محمد سليم سالم للخطابة عام ١٩٦٩).

(٢)

ولقد بدأ أرسطو الحديث عن الأخلاق فى كتابه «فن الشعر» إذ أوجب أن تعتمد الأخلاق على «أمور أربعة: فأحدها وأولها: أن تكون حسنة، والمرء يكون ذا أخلاق إذا كانت أقواله وأفعاله تدل على اختياره. ويكون ذا خلق حسن إذا كان اختياره حسناً. وهذا هو الشأن فى كل جنس، فقد يكون للمرأة والعبد خلق حسن على أن المرأة ليست شريفة جداً، والعبد ليس بشريف على الإطلاق. والأمر الثانى: هو أن تكون مناسبة، فالرجولة خلق يوجد للرجال، ولكن المرأة لا يناسبها أن تكون ذات رجولة. والأمر الثالث: هو أن تكون الأخلاق شبيهة بالواقع. وهذا غير كونها حسنة أو مناسبة كما قيل. والأمر الرابع: هو أن يكون الخلق سوياً...»^(٢).

ويعنى هذا أن (الأخلاق) المشروطة لدى أرسطو فى الشعر (والمسرح) هى أن تكون حسنة، ومناسبة، وشبيهة بالواقع، وسوية. وهى أخلاق (الممدوح) فى الشعر، وأخلاق الأبطال فى التراجيديا. وهذا ما يجعلها نقيضة (الهجاء - الذم) فى الشعر، وفى الكوميديا. أما ما يقوله عن أخلاق المرأة والعبد، فهو قول يرتبط بمكانة المرأة والعبد كليهما فى المجتمع العبودى الأثينى، وهو ما يرتبط أيضاً بمكانتهما فى العصر الجاهلى عند العرب. وهو أمر ثابت فى كل المجتمعات العبودية والإقطاعية بعامة.

ولهذا، يدخل بعض التعديل عليها وفق خصائص الفكر الإسلامى الجديدة التى تنادى بالعدالة والمساواة والحرية بين البشر جميعاً. كذلك دخول تعديل مهم يرتبط بالتراتب الأخلاقى فى الإسلام «إن أكرمكم عند الله أتقاكم». وكذلك وضع الدرجات المترتبة التى يقف فى أولها النبى «وإنك لعلى خلق عظيم». والصحابة والتابعون ثم الأتقياء بدون تفريق بين رجل وامرأة أو حر وعبد، من الناحية الدينية. وإن كان الواقع يضع المرأة فى الإسلام كنصف رجل (الميراث) ويضع العبد فى أقل مكانة كذلك الأمة (ملك اليمين)، بصرف النظر عن الاستثناءات الحادثة فى تاريخنا العربى والإسلامى التى كان للمرأة فيها شأن يفوق شأن الرجال.

وهو أمر يتجسد لنا فى التراث الشعبى فى صورة «شهر زاد» أو «الأميرة ذات الهمة»، بل ظهرت النساء من وراء حجاب فى عصر الحكاية والسيرة الشعبية لتحكم من وراء حجاب، وهذا ما جعل القيم الأخلاقية، وتراتبها، مختلفة فى التراث الشعبى بخاصة.

والأمر الذى جعل هذه التعديلات، تغير من خصائص الأخلاق عند أرسطو عندما دخلت فى الاستعمالات العربية الإسلامية. إذ كانت مقولة (مكارم الأخلاق) مقولة جامعة لكل المقولات الإيجابية الأرسطية. وهى مقولة كانت تسود الذوق النقدى العربى فى الجاهلية. (فى المدح وما يشبهه). ثم جرت على لسان النبى ﷺ وعلى لسان المسلمين من بعده، واعتبرت خصيصة أخلاقية عامة تجمع (حسن الخلق) الذى ارتبط بمقولة الصدق الأخلاقى والفنى فى النصوص الأدبية والنقدية.

وحسن الخلق فى السلوك كان ترجمة لمكارم الأخلاق من الناحية النظرية. إذ عودت حياة العربى الحربى (الشجاعة) أمام أهوال الطبيعة، وأمام فزع الحرب والموت. كما عودته (العفة) عند المغنم - عند توزيع الغنائم - وعند المحافظة على شرف القبيلة وعرضها. وعودته (التعقل) أمام الخطر حتى يتقلب عليه بحيل إنسانية عقلية تمكنه من حماية نفسه ومن حماية القبيلة فى آن. ولهذا كانت (العدالة) على قمة الأخلاق العربية، تعنى العدالة القصاص من ناحية، ونصرة المظلوم والضعيف، والانتقام من العدو، والغضب لانتهاك الحريات من ناحية أخرى.

وتدخل صفات: الكرم، والقوة، والإرادة، والجرأة، والإقدام، والنجدة، وشدة البأس، والسماحة، كلها تحت الأمور الأربعة التى حصرها أرسطو عن خصائص أخلاق الممدوح، والتى جمعت لدى العربى فى صفات تفضيلية أكثر من الأربعة السابقة، لأن أمور حياتهم فى الحرب والسلام، كانت توجب فى الحر والعبد هذه الصفات النفسية والعقلية. بعد التعديلات التى أضافها الإسلام بحكم تغير رؤية العالم وتطور وسائل تصويرها، ومصداقيتها عند الممدوح.

ونجد فى الوقت نفسه عكس هذه الصفات والخصائص عند (الذم والهزاء) وما

يقترّب منها من الأغراض الشعرية.

ونجد المقولات الفلسفية الموازية لهذا كله، على لسان أرسطو، في فن الخطابة. إذ أجملها أرسطو في: الخير، والنفع، والفضيلة، والحسن، والعدل (وهي سمات عامة للمدوح). ونجد مقولاتها المضادة في: الشر، والضرر، والرذيلة، والغضب (السلب وليس من أجل الحق) والنقمة، والحسد (الذم) وهي مقولات فلسفية عامة نستطيع أن نصنف أي صفة للمدح أو للذم في الشعر العربي تحتها. كذلك نضيف تحتها ما يفترضه النقاد من شروط للمدح والذم، يفرضونها على الواقع النقدي والشعري والثقافي بعامة.

وما ينطبق على (الشعر) ينطبق على (النثر والخطابة) لأن الكلام في الأخلاق - هنا - ينطبق على مضامين النصوص وليس على أشكالها وصياغتها وأساليبها، وهو أمر جمعه أرسطو في «فن الخطابة» بقوله: «والغاية من القول: إنما هي متوجهة نحو هؤلاء السامعين، والسامعون لا محالة إما مناظر، وإما حاكم، وإما المقصود إقناعه.»^(٣) وهي مكونات الظاهرة الأوروبية (المرسل والمستقبل والرسالة والوسط الجامع بينها) وهذا أمر يرتبط بالإقناع (في الشعر والنثر والخطابة) وهو ما جعل تعريف البلاغة يقوم على مقولة مراعاة الكلام لمقتضى الحال (مع فصاحة الكلام والمفردة)، ويكشف هذا الربط أن البلاغة ترتضى مراعاة مقتضى الحال والفصاحة، بصرف النظر عن كون النص شعراً أم نثراً أم خطبة. لأن المضمون (المفصول نقدياً عن الشكل) لن يختلف باختلاف الصيغ الشكلية للنص الأدبي بعامة. فالمقولات الأخلاقية هي أساس هذا جميعاً، أما الصيغ والأساليب فتدخل في باب التراكيب (علم المعاني - الأول) وما يرتبط به من (علم البيان - أي المجاز) بأنواعه وهو المعاني (الثواني) في التركيب الكلامي، الشعري أو النثري أو الخطابى.

كما يعنى أن البليغ منوط به إقناع المدوح بهذه الصفات والمقولات، وإقناع المتلقى بها في الوقت نفسه (في المدح) والذم) وما يتفرع عنهما من أغراض الشعر والنثر والخطابة. وهنا تقوم الأخلاق الأرسطية (في الخطابة بخاصة) بدور جوهرى

فى ثقافتنا. وبالتالى (فالإقناع) هنا يرتبط بوسائل عقلية ولغوية يتفق عليها القائل والسامع (موضوع المدح أو الذم). وهو ما يجمعه قول الشاعر «صدق» الشاعر فى قوله.. والصدق هنا ليس صدقاً نفسياً بل هو صدق عقلى أيضاً، توجد (ما صدقاته) فى الواقع. ومن هنا يتفق على مقولات هذا الصدق، سلوك المتكلم وأفكاره فى الواقع، يجر بها جميع الأطراف فى الحياة ويتمنون أن توجد فيهم قبل المدوح، أو يتمنون البعد عنها وألا توجد فيهم بعيداً عن المذموم أو المدوح.

ويفسر هذا مقولات «صدقت» و«أحسنت» التى تنطلق عند سماع هذا الكلام وهذه المقولات المقنعة، بعيداً عن حسن الصياغة والأسلوب التى تسبب متعة أخرى بجوار متعة العقل فى مقولاته الرئيسية التى أشرنا إليها من قبل. وحين نخص الشعر بهذا الكلام نرى سبباً لتعريف الشعر لدى القدامى بأنه «كلام موزون مقفى، يدل على معنى»، إذ يشمل المعنى كل ما أشرنا إليه من مقولات المدح والذم الأرسطية التى تحولت لقوالب فكرية عامة - فيما بعد - فى الثقافة العربية.

ولقد أجمل ابن طباطبا العلوى: كل ما يرتبط بالأخلاق ومقولاتها الفلسفية عند أرسطو. وكل ما يرتبط بأدوات الشعر ومفهومه، وغلبة اهتمامهم بالمعنى، أو الدلالة، وتفضيلها على أنها الأساس الذى تتعقد به النصوص فى كتابه عيار الشعر. إذ يبحث لها الشاعر (وكذلك الكاتب والخطيب) عن اللفظ والقالب، فيقول «وجماع هذه الأدوات (كمال العقل) الذى به تتميز (الأضداد) ولزوم (العدل). وإيثار (الحسن) واجتناب (القبیح)، ووضع الأشياء مواضعها.»^(٤)

وهى نفسها مقولات أرسطو فى الاقتباسين السابقين اللذين أوردناهما من كتابيه، فن الشعر وفن الخطابة.

(٣)

ولو أخذنا مقولة أرسطو عن المدح: «فإن المدح منطلق يصف عظم الفضيلة... ولذلك قد يمدح الفاعل إذا فعل. فأما الأعمال فهى دلائل على الفعال.. فأما السعادة والجدية فهما شىء واحد. ولكنها وهذه الفضائل الأخر ليستا شيئاً واحداً بل كما أن

صلاح الحال محيط بالفضيلة، كذلك الجدية أيضاً تحيط بهذه...»^(٥).

لوجدنا صداها في النقد العربي والشعر العربي بعامة. فنجدها عند قدامة بن جعفر في قوله «لما كانت فضائل الناس من حيث هم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق/ في ذلك إنما هي: العقل، والشجاعة والعدل والعفة. كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع خصال مصيباً. والمداح بغيرها مخطئاً...»^(٦)

الأمر الذي يعيد صياغة ما بدأنا به هذا البحث، أعنى أن صدى مقولات أرسطو لم يترك مكاناً في ثقافتنا إلا وأثر فيه بصرف النظر عن المجال المنقول منه والمنقول إليه. فتأثير المقولات الأخلاقية وجد مناخاً عاماً مناسباً لدى العرب والمسلمين بعامة، فإثر أرسطو كما لم يؤثر في ثقافة عالمية أخرى.

ويتضح هذا من مقولة قدامة السابقة التي جمعت الفضائل عند الناس، وهي مقولة تترجم مقولة أرسطو في الخطابة: المدح منطلق يصف عظم الفضيلة. لأن الأفعال التي يصفها قدامة بالشجاعة والعدل والعفة في الاقتباس السابق، والتي يصفها ابن طاطبا في الاقتباس الأسبق بكمال العقل، هي ترجمة لمقولات أرسطو في الفضيلة. وعكسها - لاشك - يصلح للذم حتى تعمل الثنائية الضدية بين مقولات الأخلاق، وتراتب القيم، وهنا لابد من اختبار هذه المقولة في كتب النقد والبلاغة والفلسفة العربية الإسلامية لنخرج بالصورة البحثية كاملة، وهذا ما يحتاج لعمر طويل يشترك فيه مجموعة من الباحثين. لننصف مجهودات عبد الرحمن بدوي في تقديم الفلسفة اليونانية بعامة وفلسفة أرسطو بخاصة. ولننصف كتاب الخطابة، على الأخص، إذ ينكر تأثيره أو يبهت بسبب عنوانه (الخطابة) على الرغم من تأثيره الواضح في الشعر والنثر والنقد والفكر العربي.

إن ما أقدمه - الآن - اختبار أولى يحتاج مني ومن الآخرين إلى متابعة. فقد قدمت في هذه الورقات القليلة نماذج قليلة لإثبات الفكرة فقط، وللتأكد من صحة الدعوى المعنون بها البحث. وأرجو أن أستكمل هذا الأمر - فيما بعد - ليخرج بحثاً

كاملاً مستقلاً عن تأثير كتاب الخطابة فى المؤلفات العربية الشعرية والنثرية والنقدية والفلسفية. كما أرجو أن يلفت هذا البحث نظر المتفلسفة من أبناء العربية إلى أهمية هذا الكتاب، وأهمية ما فعله عبد الرحمن بدوى فيه.

كذلك أدعو للنظر فى مؤلفات أرسطو من جديد بعد الدعاوى الجديدة التى تنشرها المؤلفات الأمريكية الآن، عن كون فلسفة أرسطو (وأفلاطون) فلسفة مصرية قديمة. ولاضير فى هذا، فالفكر الإنسانى ملك للبشرية كلها مهما يكن الشعب الذى أخرجها، ولكنه من قبيل التذكير بضرورة مراجعة تراثنا المصرى والعربى فى ضوء المتغيرات الآتية فى العالم كله، وكما يقول عبد الرحمن بدوى فى مقدمة كتابه «أرسطو عند العرب»: «لكل فكر ممتاز حياة حافلة فى الضمير الواعى المتطور للإنسانية على تباين عصورها وأجناسها. وبقدر تعدد صور هذه الحياة وعمق تكوينها وتلوينها يكون خصبها وعظمتها صاحبها ولاجنح عليها أن تتجاوزها ضروب من التعديل والتبديل وفقاً لعوامل يتصل بعضها بالأسانيد التاريخية، وبعضها الآخر - وهو الأهم - بالشعوب والأفراد الذين يتمثلون تلك الحياة، وذلك الفكر...»^(٧).

ولاشك فى أن مقولة عبد الرحمن بدوى هذه، مشفوعة بأعماله الفلسفية وتحقيق نصوص أرسطو بخاصة تدعونا لمراجعة الدور الرائد لعبد الرحمن بدوى فى ثقافتنا وفكرنا العربى الحديث.

المواش

- (١) أرسطو «فن الشعر» ترجمة وتحقيق، عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة - بيروت، بدون تاريخ - الخطابة، ترجمة وتحقيق وتعليق، عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ - عبد الرحمن بدوي، أرسطو عند العرب، دراسة ونصوص، ط٢ وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٨.
- (٢) أرسطو، فن الشعر، ص٨٨.
- (٣) أرسطو، فن الخطابة، ص ٢٨.
- (٤) ابن طباطبا، عيار الشعر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص٧.
- (٥) أرسطو، الخطابة، ص٤٣.
- (٦) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي ط٢، القاهرة، ١٩٧٩. ص٦٥.
- ص٦٦.
- (٧) عبد الرحمن بدوي، أرسطو عند العرب، ص٦.

obeikandi.com

د. عبد الرحمن بدوى
مؤرخا للفلسفة اليونانية

د. مصطفى النشار
أستاذ الفلسفة المساعد
بكلية الآداب جامعة القاهرة

obeikandi.com

تمهيد:

لاشك أن د. عبد الرحمن بدوي يعد واحدا من أهم الدارسين للفلسفة اليونانية في عالمنا العربي المعاصر، فعلى الرغم من اتساع مساحة اهتماماته الفلسفية التي شملت أبحاثا وكتابات في مختلف فروع الفلسفة، وتاريخها القديم والحديث والمعاصر، إلا أن نظرة بسيطة إلى قائمة مؤلفاته تكشف عن أنه قد أعطى جل اهتمامه للتأريخ للفلسفة الغربية عموما، وللphilosophy اليونانية خصوصا، وما ذلك إلا لأنه ومنذ مطلع الأربعينات كان ينظر إلى الفلسفة اليونانية باعتبارها ينبوع الفكر الفلسفي الغربي خاصة، والفكر الفلسفي العالمي عامة.

أولا: الصورة العامة لاهتمام د. بدوي بالفلسفة اليونانية:

وإذا اقتصرنا على حصر دائرة اهتمامنا في النظر إلى دور د. بدوي الرائد في دراسة الفلسفة اليونانية، صورتها وتأثيرها في العالم الإسلامي، لوجدنا أنه قد أعطاها أكبر قدر من مساحة اهتماماته الواسعة وكتاباته التي تشعبت وتعددت اتجاهاتها، فشملت الإبداع الفلسفي والأدبي، بالإضافة إلى التأريخ للفلسفة الإسلامية ودراسة أهم جوانبها، وتعدت ذلك فشملت تقديم العديد من الدراسات المبتكرة والجديرة بالاهتمام عن بعض فلاسفة الغرب المحدثين والمعاصرين أمثال نيتشه واسبينجر وكانط وشوبنهاور وبرجسون، كما تضمنت اهتماما واسعا بتقديم أهم التحقيقات لمجموعة منتقاة من نصوص فلاسفة اليونان والعرب على حد سواء.

وقد انصب اهتمام د. بدوي بالفلسفة اليونانية على ثلاثة محاور: - **المحور الأول** : التأريخ لها والتعريف بمصطلحاتها ويأهم فلاسفتها، وقد قدم هذا التأريخ في كتبه المعروفة «ربيع الفكر اليوناني» و«خريف الفكر اليوناني»، وبينهما كتاباه عن «أفلاطون» و«أرسطو»، أما **المحور الثاني** فقد تمركز حول نشر النصوص الفلسفية اليونانية التي نقلت إبان عصر ازدهار الترجمة في العالم الإسلامي إلى اللغة العربية، سواء كانت أصلية مثل تحقيقاته الهامة للترجمات العربية القديمة لنصوص أرسطو، مثل كتاباته المنطقية، وفي النفس والأخلاق والسياسة وفي علوم الحيوان

وفن الشعر الخ. أو كانت منحولة أو مشكوكا في نسبتها إلى هؤلاء الفلاسفة الكبار مثل ما قدمه من نصوص في كتابيه «المثل العقلية الأفلاطونية» و«الأفلاطونية المحدثة عند العرب».

أما المحور الثالث فقد تركز حول بيان صورة الفلسفة اليونانية في العالم الإسلامي، وفي ذلك قدم العديد من الدراسات والتحقيقات، بدأت بكتابه الهامين «التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية» و«الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام» بما اشتمل عليه من دراسات ونصوص، وتالت أثناء ذلك وبعده إصداراته للنصوص العربية التي توضح صورة فلاسفة اليونان في العالم الإسلامي، وتكشف عن دور العرب في فهم وشرح وتأويل مؤلفات فلاسفة اليونان، ومن أهم هذه الإصدارات «أرسطو عند العرب» و«أفلاطون عند العرب» و«أفلاطون في الإسلام»، كما كان للدكتور بدوي فضل الكشف عن مؤلفات نادرة لمؤرخين وفلاسفة إسلاميين اهتموا بالتأريخ للحكمة والأقوال الحكماء من اليونانيين والشرقيين، مثل تحقيقه لكتاب مسكويه «الحكمة الخالدة»، وكتاب المبشرين فاتك «مختار الحكم ومحاسن الكلم».

وفي اعتقادي أن كل محور من هذه المجالات الثلاثة يحتاج لدراسة مستقلة حتى تكتمل لدينا الرؤية العامة للدكتور بدوي للفلسفة اليونانية، ودوره في إثراء الدراسات الفلسفية العربية المعاصرة حولها. فمما لا شك فيه أن كل الدراسات العربية المعاصرة في الفلسفة اليونانية والإسلامية قد استفادت مما كتبه، سواء أيدته في أطروحاته وآرائه أو اختلفت معه. فما قدمه بدوي في هذا المجال لا يمكن لأحد الدارسين أن يتجاوزه دون أن يستفيد منه بشكل أو بآخر.

ثانيا: رؤيته العامة للتأريخ للفلسفة اليونانية:

يبدأ د. بدوي كتابه «ربيع الفكر اليوناني» بعرض مطول لرؤيته العامة في التاريخ للفلسفة عامة وللإسلامية بوجه خاص، وهو يوضح جوانب رؤيته - بعد أن يستعرض الرؤى المختلفة للتأريخ للفلسفة - على أساس حصر المشاكل التي تبنت

فى التأريخ للفلسفة أمام المؤرخين فى ثلاثة مشاكل رئيسية هى: أولاً : مشكلة نشأة الفلسفة، أى ما هو التاريخ الذى نستطيع أن نقول عنده إن الفلسفة، قد وجدت بالفعل ومنه نستطيع بعدئذ أن نبدأ البحث فى تاريخ الفلسفة؟ . وثانياً: مشكلة حدود الفلسفة، أى إلى أى حد نستطيع أن نقول إن ثمة تاريخاً للفلسفة وإن هذا التاريخ مستقل عن بقية العلوم الروحية. أى ما هى الفلسفة أولاً، وثانياً ما هى الصلة بين الفلسفة وبين بقية العلوم الأخرى؟. وثالثاً: هل هناك قانون خاص تسيير عليه المذاهب الفلسفية فى تطورها؟ وإذا كان هناك قانون فما هو، وما هو؟، المنحنى الذى تترسمه المذاهب الفلسفية فى ظهورها على مدى التاريخ؟^(١)

ولقد قدم د. بدوى إجابات على تلك التساؤلات التى تلخص تلك المشاكل الثلاثة مبتدئاً بمشكلة نشأة الفلسفة ونقطة البداية التاريخية لها، وقد حسم موقفه منذ البداية حينما بدأ فى الرد على حجج من يقولون إن الفلسفة بدأت من الشرق القديم حجة بعد أخرى، وجاءت ردوده متتابعة لردود كل من يناصرون المعجزة اليونانية من المؤرخين الغربيين، وإن كان قد ركز فيها على التمييز بين العلم الذى كان سانداً لدى الشرقيين القدامى والعلم اليونانى، حيث أكد على أن العلم عند الشرقيين من بابليين ومصريين كان تجريبياً يركز على النتائج دون معرفة الأساس النظرى «فبالخلاف الهائل بين الرياضيات عند المصريين - وعند الشرقيين بوجه عام - وبينها عند اليونانيين يقوم على أساس أن اليونانيين قد اكتشفوا النظرية بينما المصريون لم يستطيعوا أن يعرفوا إلا النتيجة فقط. إن فى هذا الاختلاف يقوم الفارق بين الفكر الفلسفى النظرى والفكر غير الفلسفى الذى هو فكر عملى صرف»^(٢).

ولكم يدهشنى دائماً أمثال هذه الحجج التى تحاول التمييز بين طابع العلم عند المصريين والشرقيين القدامى عموماً و اليونانيين، على أساس أن العلم عند الأوائل عملى بينما عند الأخيرين نظرى، وأن الأوائل لم يعرفوا إلا النتائج بينما الأخيرون عرفوا النظريات! فكيف بالله عليكم يعرف المصرى القديم نتيجة المسألة الرياضية دون أن يعرف مقدماتها! .. أى مسألة رياضية تلك التى يمكن للإنسان أن يعرف نتيجتها دون أن يعرف المقدمات التى استخرج منها هذه النتيجة!!

إن كل ما فى الأمر أن هؤلاء قد أخفوا العلم بالمقدمات ولم يظهرها إلا النتائج مطبقة فى الواقع العملى، وذلك لسبب واضح لديهم، غامض علينا وهو أن هذه التعاليم النظرية كانت فى الشرق القديم سرية مقصورة على أصحابها من الكهنة الذين كانوا هم كبار العلماء أيضا.

ولقد نقلت هذه السرية للتعاليم النظرية معظم المدارس الفلسفية اليونانية الأولى، فجعلت الفيثاغورية - وهى أشهر المدارس الرياضية عند اليونان - التعاليم سرية، وكان يعاقب من يفشى سرا من الأسرار العلمية عقابا شديدا يصل إلى الموت، فقد ألقى الفيثاغوريون بهيبيا سوس أحدهم فى البحر لأنه أفشى سر الجذر التربيعى للعدد ٢.

على أى حال ، لقد حسم د. بدوى موقفه وانحاز إلى أنصار المعجزة اليونانية فانتهى إلى أن بدء الفلسفة لا يمكن أن نضعه فى الفكر الشرقى، وإنما يجب أن يكون هذا البدء فى القرن السادس قبل الميلاد عند اليونانيين^(٣)، وبهذا انحاز كما يقول إلى رأى أرسطو ورجحه على «المحاولات الحديثة التى قامت من أجل النيل من هذا الرأى ومن أجل عد الفكر الشرقى هو مرجع الفكر الفلسفى^(٤).

وقد انتقل د. بدوى بعد ذلك إلى المشكلة الثانية عن حدود الفلسفة، هل نحددها بالغرب أم نجعل ثمة مكانا للفكر الشرقى؟. وقد أجاب عن هذا التساؤل معترفا ببعض الصلات بين اليونانيين والشرقيين خصوصا، ابتداءً من حكم الإسكندر حتى نهاية الحروب الصليبية، ولكنه أنكروا أن تكون هذه الصلات قد أثرت فى الفكر اليونانى.. فبالنسبة للشرق القديم فإنه بالرغم من وجه الشبه بين الفكر الهندى والفكر اليونانى، ورغم أننا نجد تشابها كبيرا بين كثير من المذاهب الهندية وبعض المذاهب اليونانية، إلا أننا لا نستطيع معرفة تاريخ هذه الكتب بالدقة وتحديد الزمن الذى وضعت فيه، ومن ثم فإننا لا يمكن أن نعرف إن كان الفكر الهندى قد أثر فى الفكر اليونانى أم أن العكس هو الصحيح.

ويواصل د. بدوى عرض رأيه فى «حدود الفلسفة» فيقول إننا نجد أنه قد قامت فى الشرق فلسفة فى العصور الوسطى هى الفلسفة الإسلامية، وأنها قد أثرت

بدورها وانتقلت إلى الأوروبيين، لكنه يرى «أنها كانت في الواقع صورة مشوهة بعض الشيء للفلسفة اليونانية»^(٥)، ورغم ذلك فهو يعيرها أهمية ويجعلها تحتل مكانا ضخما في دراسته لأنه مضطر إلى ذلك باعتبارنا شرقيين تقريبا ومسلمين غالبا^(٦). وأعتقد أن هذا الرأي الغريب من د. بدوى، والذي كتبه في مطلع الأربعينيات من هذا القرن، قد تغير الآن بعد الدراسات الواسعة له في الفلسفة الإسلامية، وإن كانت هذه الدراسات قد اتخذت في الأغلب الأعم شكل تحقيقات لنصوص بعض الفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة، ولم يفسح لها في تأريخه مجالا ضخما كما وعد، فلم يكتب بالعربية سوى مقالات الإسلاميين، وإن كان قد أرخ لها بالفرنسية في جزئين.

وعلى أي حال، فربما يكون في ذلك الخير للفلسفة الإسلامية لأنه كان سيؤرخ لها باعتبارها «صورة مشوهة بعض الشيء للفلسفة اليونانية».

وقد عرض د. بدوى بعد ذلك لرأيه في المشكلة الثالثة وهي صلة الفلسفة بالعلوم الأخرى، وبدأ بالتأكيد على أن الفلسفة لا يمكن أن تنفصل عن الأشخاص الذين أنتجوها ولا عن الروح السائدة في العصر الذي أنتجت فيه، كما أنه ليست هناك حدود ثابتة بين الفلسفة والعلم، أو بين الفلسفة والفن، أو بينهما وبين الدين والسياسة، وإنما هي حدود مختلطة تارة تضيق وتارة تتسع^(٧).

وقد عرض مؤلفنا بعد ذلك لتاريخ التأريخ للفلسفة، فاستعرض محاولات المؤرخين منذ فلوطرخس، الذي كتب كتابا أسماه «أقوال الفلاسفة»، ومن قبله ديوجانس اللايرتي صاحب كتاب «حياة الفلاسفة»، ومرورا بما كتب في تاريخ الفلسفة في عصر النهضة، الذي كان أقرب إلى تأريخ لتتابع الشيع الفلسفية المختلفة وتنازعها، وبما كتب كذلك في العصر الحديث حيث عرض لآراء كوزان وكونت وهيجل وغيرهم.

وقد وصل في عرضه لتلك الآراء إلى القرن العشرين مركزا على عرض المنهج الحضاري في التأريخ للفلسفة، الذي قدمه اشبنجار أكبر فلاسفة الحضارات في رأيه، وقد لخص مجمل هذا المنهج - الذي قال إنه سيتبعه في دراسته لتأريخ الفلسفة اليونانية - بقوله «إن للحضارة خصائص معينة، وإن لكل حضارة أسلوبها

الخاص، وهذا الأسلوب يطبع كل فنان وكل سياسى وكل مفكر فى أية ناحية من نواحي الحياة الروحية بطابعه الخاص، ولا نستطيع مطلقا أن نفهم فيلسوفا من الفلاسفة إلا إذا عرفنا الخصائص المميزة للحضارة التى ينتمى إليها، فأول شىء يجب على مؤرخ الفلسفة أن يعنى به هو أن يحدد خصائص الحضارة التى نشأت فيها تلك الفلسفة التى يعنى بدراستها ، ثم يلاحظ من ناحية أخرى أن هناك قانونا عاما ثابتا بالنسبة لمختلف الحضارات، فكأننا نستطيع أن نقول إن هناك قانونا خاصا يسير على التطور الفلسفى، لا بوصفه تطورا خاصا بكل حضارة على حدة. ومن هنا يمكننا أن نرضى نزعة هيجل وأنصاره من حيث إيجاد قانون عام يسير عليه التطور الروحى، ويلاحظ من ناحية ثانية أن المشاكل ليست أبدية وإنما كل مفكر وكل حضارة لها وله مشاكلهما الخاصة، وكل مشكلة من هذه المشاكل لإبد أن تحل تبعا لخصائص كل حضارة - على حدة - وظروفها، والشخص المبدع هو الذى يعكس فى روحه كل خصائص الحضارة التى ينتسب إليها ويدوره يعطيها خصائص جديدة، فهو إذن سلبي يخضع لخصائص الحضارة من ناحية، وهو من ناحية أخرى إيجابى يخلق للحضارة مميزاتها ويضع لها قيما خاصة. ومعنى هذا أن للفردية والشخصية دخلا كبيرا فى تكوين كل فلسفة. وبهذا نكون قد أرضينا النزعة الفردية^(٨).

وواضح من ذلك أن المؤلف سيتتبع فى تأريخه المنهج الحضارى الذى يستند على مقولة اشبنجر الخاصة بالحضارات المقفلة، وفى إطارها سيراعى المزج بين إدراك التطور الفلسفى لكل حضارة، وإدراك أن للفرد والشخصية دور تؤديه فى هذا التطور.

ورغم أن ذلك المنهج بهذه الأسس به الكثير من العناصر الهامة والضرورية للتأريخ للفلسفة أو لأى نشاط إبداعى آخر، إلا أنه يستند على فكرة الحضارات المقفلة التى أرى أنها ربما كانت السبب فى اعتقاد المؤلف بالمعجزة اليونانية، فضلا عن أنها ليست دقيقة لأنه لم ولن توجد تلك الحضارات المقفلة على نفسها، والتى لم تتأثر بغيرها من الحضارات السابقة عليها أو المعاصرة لها.

ويبدو أن د. بدوى قد تبنى وجهة نظر اشبنجر تماما، فعرض بعد ذلك لخصائص الروح اليونانية أو الأبولونية - نسبة إلى الإله أبولو - كما يفضل الأخير تسميتها، وأول خاصية تتميز بها هي أنها كانت حضارة مرتبطة باللحظة الحاضرة ولا تعرف الماضى ومرتبطة بالجسم بوصفه حاضرا فى المكان، وثانى هذه الخصائص هي الانسجام، وهى الخاصية الرئيسية للروح اليونانية والتي تعبر عنها لفظة أبولونية، وقد أوضح المؤلف كيف تمثل الانسجام فى الرياضيات وفى الفلسفة اليونانية بشكل عام. وقد ميز على أساس هذه الخصائص بين الفلسفة اليونانية والفلسفة الحديثة^(٩).

وانتقل بنا المؤلف بعد ذلك إلى الحديث عن عصور الفلسفة اليونانية، وبدأ باستعراض آراء المؤرخين السابقين لعصورها خاصة آراء هيجل وأتسلر. وقد ارتضى أخيرا أن يتابع رأى اشبنجر أيضا بصدد هذا التقسيم، فاستند على رأيه الذى يقسم الحضارات فيه من الناحية الروحية إلى أربعة أقسام رئيسية كفصول السنة الأربعة (ربيع - صيف - خريف - شتاء)، وفى داخل كل قسم من هذه الأقسام توجد أقسام أخرى هي بدورها تكاد تكون متناظرة بين هذه الأقسام الرئيسية^(١٠). ولم يختلف د. بدوى مع اشبنجر إلا فى رأيه حول الأفلاطونية المحدثة. فقد أخرجها الأخير من عالم الحضارة اليونانية وأدخلها فى الحضارة التى يسميها باسم الحضارة العربية أو الحضارة السحرية^(١١)، بينما اعتبرها الأول داخلة ضمن الحضارة اليونانية، رغم إقراره باختلافها فى طابعها تمام الاختلاف عن المذاهب الأخرى كالبيقورية والزواقية والشكاك، ولذلك فهو سيؤرخ لها باعتبارها تمثل عصرا قائما بذاته هو العصر الرابع^(١٢).

ثالثا: عرض تاريخه للفلسفة اليونانية:

ارتضى د. بدوى كما أشرنا فى الفقرة السابقة المنهج الحضارى للتاريخ للفلسفة اليونانية، وبالتالي فقد نظر إلى تطور الفكر اليونانى عبر مراحل أربعة حسب الفصول الأربعة للسنة، فتحدث فى «ربيع الفكر اليونانى» عن «الفلسفة اليونانية» فى

عصرها الأول منذ ظهورها وازدهارها على يد الفلاسفة الأول من طاليس وحتى السوفسطائيين، ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن صيف الفكر اليوناني في كتابيه «أفلاطون» و«أرسطو»، فتحدث في الأول عن خصائص الفلسفة اليونانية في عصرها الثاني، ثم عن سقراط وفلسفته، ثم عن أفلاطون : حياته وفلسفته، وفي الكتاب الثاني تحدث عن أرسطو: حياته وأقسام فلسفته المختلفة، واختتم تأريخه للفلسفة اليونانية بكتاب «خريف الفكر اليوناني»، الذي أرخ فيه لخريف وشتاء الفلسفة اليونانية، فقد بدأ هذا الكتاب بالحديث عن خصائص الفلسفة اليونانية في عصرها الثالث، ثم تحدث عن خريف الفكر اليوناني الذي تمثل في نظره في الرواقية والأبيقورية والشكاك، وبعد ذلك تحدث عن شتاء الفكر اليوناني الذي تمثل لديه في فلسفة فيلون والأفلاطونية المحدثة.

(١) ربيع الفكر اليوناني:

يبدأ المؤلف عرضه للفلسفة اليونانية بالحديث عن ربيعها، ويقدم لهذا العرض بالحديث عن خصائص الفلسفة اليونانية في عصرها الأول، محددًا إياها في ثلاث هي: الاتجاه نحو الطبيعة الخارجية، وعدم البحث في الطبيعة الداخلية، وعدم التوفيق بين الروحي والمادي.

وقد قسم هذا العصر بعد ذلك إلى قسمين: الأول يبدأ من طاليس وينتهي بانتهاء المدرسة الإيلية، ويشمل المدرسة الأيونية والمدرسة الفيثاغورية والمدرسة الإيلية. والقسم الثاني يبدأ بهيراقليطس وينتهي بأتكساغورس، وأشهر الشخصيات فيه هيراقليطس أولاً، ثم أنبادوقليس، ثم المدرسة الذرية، وأخيراً أنكساغورس. ولقد بدأ حديثه التفصيلي عن هذين القسمين بالحديث مرة أخرى عن موضوع نشأة الفلسفة اليونانية، ويعود إلى تأكيد رأيه السابق عن المعجزة اليونانية «لأن الفلسفة اليونانية لم تنشأ متأثرة بأفكار شرقية»^(١٣). أو لم تنشأ عن «فلسفة شرقية مزعومة»^(١٤).

ومن ثم فهو يهتم ببيان مصادر نشأة هذه الفلسفة من اليونان نفسها، فيحددها بثلاثة هي «المصدر الصوفي» الذي رأى نيتشه أنه أصل النظرة الفلسفية عند

اليونان، وإن كان مؤلفنا قد مال إلى رأى يسبرز القائل بأن الفلسفة تنشأ دائما في أحضان الدين، وأيده بأن رأى أن الفلاسفة في الدور الأول للتفلسف قد استخدموا المصطلحات الدينية وتكلموا بلغة الدين. وقد قرب بين رأى نيتشه ورأى يسبرز قائلا «إن أخذهم عن التصوف وأخذهم عن الدين شيء واحد»^(١٥).

وأما المصدر الثانى فهو «التفكير السياسى» الذى ظهر قبل القرن السادس عند رجال السياسة، الذين كان أشهرهم صولون، أما المصدر الثالث فهو التفكير الأخلاقى، حيث إن «التفكير الأخلاقى ظاهر ظهورا واضحا فى القصائد الهوميرية»^(١٦). وظاهر من كل الأقوال التى بقيت لنا من الفلاسفة السابقين على سقراط أن تفكيرهم كان مطبوعا بهذا الطابع الأخلاقى إلى أبعد حد^(١٧).

ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى التناقض الكائن بين حديث المؤلف عن مصادر نشأة الفلسفة اليونانية وحديثه السابق عن خصائص الفلسفة اليونانية فى عصرها الأول، إذ كيف يتسق قوله بأن من خصائص هذا العصر الاتجاه نحو الطبيعة الخارجية وعدم البحث فى الطبيعة الداخلية مع قوله بأن مصادر هذا العصر الفكرى هى التصوف أو الدين من ناحية، والتفكير الأخلاقى من ناحية أخرى!

إنه لا يخفى على أحد أن التصوف والأخلاق ناتج البحث فى الطبيعة الداخلية وليس الخارجية، كما أن بحث الفلاسفة الأوائل كان - على حسب رأى د. بدوى - منصبا على الطبيعة الخارجية.

ينتقل بنا المؤلف بعد ذلك إلى التاريخ لأول المدارس الفلسفية اليونانية وهى المدرسة الأيونية مبتدئا بطاليس ثم أنكسيمندريس فأنكسيمانس، وقد عرض أيضا لامتداد آراء هذه المدرسة عند ذيوجانس الأبولونى الذى قال إن «المبدأ الأول يجب أن يكون أولا أزليا أبديا قادرا على النفوذ فى جميع أجزاء الكون متحركا باستمرار، ومن ناحية أخرى يجب أن يكون هذا المبدأ مبدأ الحياة فى الوجود ومبدأ الحركة، ولذا قال بما قال به أنكسمانس من أن هذا المبدأ هو الهواء، لأنه وجد أن الهواء ينفذ فى جميع الأشياء وأنه لا نهائى وأنه أزلى أبدي، ثم من ناحية أخرى الهواء أقرب الأشياء إلى الأشياء اللاحسية أى إلى الروح، وذيوجانس ينسب إلى هذا المبدأ أولا الأزلية والأبدية وثانيا الحياة وثالثا العلم ورابعا القدرة وخامسا

العظم (١٨).

وقد تحدث بعد ذلك عن المدرسة الفيثاغورية ، فأكد في البداية على أنه يجب على مؤرخ الفلسفة أن يميز تمييزاً دقيقاً بين المذاهب الفلسفية الخالصة في هذه المدرسة وبين مذاهبها الدينية والأخلاقية، خصوصاً وقد أفضى عدم التفرقة بكثير من المؤرخين إلى الخلط والتناقض في فهم مذهب الفيثاغوريين^(١٩).

وقد وعد بأنه سيصرف النظر عن هذه الأقوال الأخلاقية الدينية، لكنه اضطر بعد ذلك إلى الربط - كما ربطوا هم - بين معتقدات الفيثاغوريين الدينية وحديثهم عن الأعداد باعتبارها أصل العالم، كما اضطر أيضاً ولأول مرة أن يعترف بتأثير الفيثاغوريين في ذلك بالفلسفة الشرقية حينما قال: «وكانوا في هذا متأثرين من غير شك بالمذاهب الشرقية، خصوصاً عند البابليين حينما كانوا يجعلون لبعض الأعداد فضائل وأسراراً متصلة بالوجود»^(٢٠).

وقد اضطر كذلك إلى الاعتراف بالأصل الشرقي لفكرة تناسخ الأرواح، التي اعتقد فيها الفيثاغوريون، فقال: «ليس من شك في أن هذا الرأي الذي قال به الفيثاغوريون، لم يكن رأياً علمياً قالوا به، بل كان معتقداً دينياً أغلب الظن أنهم أخذوه عن الشرقيين»^(٢١).

وبالطبع فإن هذه الاعترافات للمؤلف بالأصل الشرقي لبعض الآراء الفيثاغورية تنفي إنكاره السابق للتأثير الشرقي على الفلسفة اليونانية، وتؤكد أنه إذا ما أردنا أن نفهم الفلسفة الفيثاغورية حق الفهم فإنه لزاماً علينا أن نعود إلى أصولها الشرقية القديمة في الهند وبابل، وكذلك في مصر القديمة التي ثبتت زيارة فيثاغورس لمدرستها الفكرية في مدينة «أون» وتلمذه على يد المفكرين والعلماء فيها^(٢٢).

وقد انتقل المؤلف بعد ذلك إلى التاريخ للفلسفة الإيلية مبتدئاً باكسينوفان على الرغم من أنه في رأيه ليس فيلسوفاً إيلياً خالصاً، وكل ما يمكن أن نعهده هو أنه فيلسوف انتقل من المدرسة الأيونية إلى المدرسة الإيلية^(٢٣). ثم أرخ لفلسفة بارمنيدس الذي اعتبره - بحق - «أول الفلاسفة الحقيقيين في المدرسة الإيلية»، وقد عرض هنا للاختلاف بين المؤرخين حول تفسير معنى الوجود عند بارمنيدس

موضحا آراء تسلر وبيرنت اللذين فسرا الوجود البارمنيدي على أنه حسى خالص، لدرجة أن بيرنت اعتبر بارمنيدس أبا المادية.

ثم أوضح آراء أولئك الذين ينكرون هذا التفسير المادى للوجود مميّزا بين فريقين: منهم فريق يجعل هذا الوجود وجودا ميتافيزيقيا، ومن ثم يجعلون بارمنيدس أبا للمثالية وعلى رأس هؤلاء جوميرتس، وفريق آخر يجعله رجل منطق تصور الوجود تصورا منطقيا خالصا، لأنه قال إن الوجود هو الفكر وأنه وجود فى الذهن أو فى العقل، وكان على رأس أنصار هذا الرأى الأخير رينهرت ثم أنصار مدرسة ماربرج.

وقد وافق د. بدوى على رأى الفريق الأول من هذين الفريقين لأن الوجود عند بارمنيدس فى رأيه ليس هو الوجود الحسى، كما أنه ليس الوجود المنطقى الصرف» (٢٤).

ولقد عرض د. بدوى بعد ذلك لزينون الإيلى الذى كان له فضل الدفاع عن مذهب أستاذه ضد خصومه، وكذلك عرض لدفاع مليسوس عن نفس الآراء البارمنيديّة، وتوقف بعد ذلك مع فلسفة هراقليطس مؤكدا معارضة مذهبه لمذهب الإيليين، إذ قال بالتغيير الدائم بدلا من الثبات وبالكثرة المطلقة بدلا من الوحدة. ثم عرض لفلسفة أنبادوقليس على أنها محاولة للتوفيق بين كلا الفريقين، إذ وصف أنبادوقليس الوجود بما يصفه به بارمنيدس، كما أنه جعل للتعدد مكانا كى يستطيع تفسير الحركة والتغير، فقد اعتمد أنبادوقليس على العناصر الأربعة المعروفة فى تفسيره للعالم الطبيعى، بالإضافة إلى قوله بمبدأين عقليين عاليين على المادة هما المحبة والكراهية، فسرمن خلالهما نشأة العالم وتجدد دوراته.

وقد انتقل بعد ذلك إلى عرض عام لفلسفة الذريين ليوقىوس وديمقريطس، فى تفسيرهم لنشأة العالم على أساس الذرات ولنظريتهم فى المعرفة والأخلاق، وانتهى إلى أنه «مذهب جمع بين المذاهب السابقة جميعا، فهو يجمع من ناحية بين صفات الوجود عند الإيليين و الكثرة والتغير عند هراقليطس، كما يحاول الأخذ بحجج زينون وتأثير هذه الحجج» (٢٥). وإن كنت أخالفه فى هذا الرأى: فالفلسفة الذرية – فى

اعتقادى - قد انطلقت من نقطة بداية مختلفة، هي أن الذرة هي المكون الأساسى للعالم الطبيعى، واستطاعت أن تقدم تفسيراً مادياً محكماً على هذا الأساس، وهى وإن اتفقت مع تلك المدارس السابقة فى بعض الأفكار فإن هذا لا يعنى أنها كانت مجرد مذهب جمع بين تلك المذاهب السابقة.

وقد عرض المؤلف بعد ذلك لفلسفة أنكساغورس الذى كان أول من أدخل الفلسفة فى أثينا وصاحب الإضافة الشهيرة إلى التفسيرات المادية للعالم الطبيعى بقوله «إن العقل nous هو منظم الأشياء جميعاً»، ففى هذه العبارة يكمن التجديد الذى أتى به إلى التفسيرات السابقة، فقد رأى أن تفسير الحركة سواء أكان ذلك عن طريق الحركة الدائرية أم عن طريق آخر مادى ليس بتفسير مقنع، وإنما التفسير المقنع هو ذلك الذى يرجع الحركة والاختلافات إلى علة غير مادية وهذه العلة غير المادية هى العقل» (٢٦).

وفى الفصل الأخير من هذا الجزء يتحدث المؤلف عن ما أسماه بعصر التنوير، وهو عصر السوفسطائيين فى الفلسفة اليونانية، وقد عرض لاختلاف وجهات النظر حول الحركة السوفسطائية وحول تقييم دورها فى الحضارة اليونانية. وقد اعتبرها هو من خير من مثل الروح اليونانية الأصيلة، روح الإيمان بالتغير والنسبية والنضال. وقد توقف بعد ذلك مع فكر بروتاجوراس وجورجياس فقط من السوفسطائيين، وينهى هذا الجزء بالحديث عن الأهمية الحضارية للنزعة السوفسطائية. ثم بمجموعة هائلة من الحواشى والمراجع، وفهرس دقيق للأعلام.

(ب) صيف الفكر اليونانى:

(١) أفلاطون:

بدأ د. بدوى عرضه لصيف الفكر اليونانى فى كتابه المعنون «أفلاطون» بعرض لخصائص الفلسفة اليونانية فى عصرها الثانى حسب تصنيفه. فالعصر الثانى هو عصر سقراط وأفلاطون وأرسطو، وقد وجد مؤرخنا أن القاسم المشترك لفلسفة هؤلاء الثلاثة هو اتجاههم فى فلسفتهم نحو الإنسان، وقد انتهى فى تصويره لهذا الاتجاه الإنسانى فى فلسفتهم إلى وصفهم جميعاً بالمثالية، فمن الواضح فى نظره

«أنهم يتفوقون جميعا في هذه الصفة، صفة المثالية. فأرسطو لا يقل مثالية عن أفلاطون، لأن الوجود الحقيقي عنده هو أيضا ليس وجود المادة بل وجود الصورة. وكل ما هناك من خلاف بينه وبين أفلاطون في هذا الصدد هو في أن أفلاطون جعل الصورة مفارقة، أما أرسطو فقد جعل الصورة والهيولى يوجدان معا غير منفصلين^(٢٨). ولا يختلف أحد مع د. بدوى في أن هؤلاء الفلاسفة الثلاثة قد اتصفت فلسفاتهم بالاتجاه نحو الإنسان، فهذا اتجاه بدأ مع السوفسطائيين وسقراط ودعمه كل من أفلاطون وأرسطو، لكن ما نختلف معه فيه هو هذا التقييم لفلسفة أرسطو على أنها فلسفة مثالية، بل إن أرسطو كان في نظره «مثاليا مغاليا»^(٢٩). فالحقيقة في اعتقادنا أنه إن كان لأرسطو مذهب تميز به عن مذهب أستاذه أفلاطون فإن أساس هذا التميز سيكون في اتجاه أرسطو نحو الواقعية، ففي ميتافيزيقاه أنزل الماهيات من عالمها الأفلاطوني المفارق (عالم المثل) إلى عالمنا المحسوس بحيث يمكننا الكشف عنها بمجرد التمييز في أى شىء بين وجوده بالقوة (المادة) ووجوده بالفعل (الصورة)، وفي نظريته "المعرفة" نجد أنه أعطى الحواس دورا واسعا في المعرفة وهو دور لا يقل أهمية عن دور العقل، وكذلك فعل في تحليلاته الأخلاقية والسياسية، وفي نظريته عن الفن^(٣٠)... إلخ.

ومن خصائص الفلسفة اليونانية في عصرها الثاني أيضا عند د. بدوى أن فلاسفة هذا العصر لم يفرقوا تفرقة كبيرة بين السياسة والأخلاق^(٣٢) وهذا ما ميزهم بحق عن فلاسفة العصر الثالث (عصر الأبيقورية والرواقية)، بينما عنى أفلاطون وأرسطو ببيان الصلة الوحيدة بين الأخلاق الفردية وواجبات الدولة، نجد أن الأبيقوريين من فلاسفة العصر الثالث قد اعتبروا أن الفضيلة العليا هي الاكتفاء بالذات والانصراف التام وعدم التأثر بالطبيعة الخارجية أو بأى شىء خارجي. وعلى ذلك فقد اعتبر د. بدوى أن خصائص الروح اليونانية التي حدثنا عنها في «ربيع الفكر اليوناني» ظاهرة كل الظهور في العصر الثاني، وإن كانت قد بدأت تضمحل شيئا فشيئا في هذا العصر^(٣٢).

وقد انتقل د. بدوى بعد ذلك إلى عرض فلسفة سقراط مبتدئا من النظر في

حياته، على اعتبار أن فكر سقراط ينتمي إلى أولئك الفلاسفة، الذين تتصل حياتهم أشد الاتصال بمذهبهم الفلسفي، ولما كان د. بدوى يتبع في عرضه لحياة الفلاسفة من هذا النوع منهج مؤرخي الفلاسفة من الألمان الذين يقسمون حياة الفيلسوف أو المفكر إلى ثلاثة أطوار تكشف عن تطوره الفكرى والروحى هي: الطور الأول: طور التلمذة والطلب، والطور الثانى: عهد التنقل، والطور الثالث: طور الأستاذية، فإنه بالنسبة لسقراط لم يجد ما يكفى من المعلومات المتوافرة عن حياة سقراط لتقديم هذا العرض المطول لتطور الفيلسوف الفكرى. فاكفى بتقديم نبذة قصيرة عن تطور حياته عبر هذه الأطوار^(٣٣). ثم تحدث عن اختلاف المؤرخين حول أخلاق سقراط، إذ منهم من ارتفع بها إلى مرتبة مثالية عليا، وقام آخرون فحطوا من قدره ونسبوا إليه تهما شنيعة^(٣٤). أما الأولون فهم أتباعه الذين وصفوه بالصلابة والقناعة وضبط النفس ورقته مع الناس وعشقه لوطنه، ومع هؤلاء نحن أمام سقراط الذى يظهر فى نظر مؤرخنا بمظهر الابن الحقيقى للروح اليونانية^(٣٥). وقد نسى د. بدوى أن يذكر لنا من هم الآخرون الذين ينسبون إلى سقراط تلك التهم الشنيعة، وإن كنا ندرك أنه يقصد بالطبع التهم الثلاثة الشهيرة التى وقف أما المحكمة الأثينية ليدفعها عن نفسه فيما رواه أفلاطون فى محاورة «الدفاع».

وقد شغل د. بدوى بتفسير ما سُمى فى المحاورات الأفلاطونية «بجنى» سقراط، ورفض تلك الآراء التى ترى أنها كانت حالة مرضية يعانى منها سقراط. كما رفض أيضا أولئك الذين فسروا هذا الجنى بأنه الضمير، ورجح رأى شليرماخر الذى ذكر أنه بمثابة صنوت باطن كان يأتى سقراط فى بعض الأحوال، فينبهه إلى الطريق الذى عليه أن يسلكه فى المسائل الخطيرة التى كانت تعرض له فى حياته، وقد اعتبر د. بدوى أن هذا الأمر من سقراط إنما يمثل روحا جديدة غريبة نافرة بالنسبة للروح اليونانية الحقيقية^(٣٦). وانتقل بعد ذلك إلى مناقشة مصادر معرفتنا بسقراط وهى محاورات أفلاطون وكتابات أكسينوفون ومؤلفات أرسطو، وعرض للحجج المختلفة التى يستند إليها المؤرخون فى تفضيل رواية أحد هذه المصادر على المصدرين الآخرين، وانتهى إلى أن من الأصوب أن نستعين بها جميعا حتى نكمل الواحدة

منها بالأخرى.

أما نقطة البدء في الفلسفة السقراطية فقد رأى أنها البحث في طرق المعرفة، ذلك لأن سقراط كان يرى أن المعرفة لا يمكن أن تقدم على أساس صحيح إلا إذا كانت قد درست من قبل طرق الوصول إلى المعرفة، كما أن الأخلاق نفسها لا يمكن أن تقوم إذا لم تسبق بالعلم، لأن الفضيلة تقوم أيضا على العلم^(٣٧). وهذه رؤية صائبة من مؤرخنا أعقبها بنتيجة هامة عن الفلسفة السقراطية هي أن سقراط قد جعل النظر والعمل شيئا واحدا أو على الأقل لم يفصل بينهما.

فالعقل يقوم على أساس المعرفة الصحيحة وتبعا لهذا لا يمكن أن يفصل الواحد عن الآخر^(٣٨). وهذه أيضا نتيجة صائبة تكشف عن جوهر الأخلاق في الفلسفة السقراطية التي لا تتفصل فيها المعرفة النظرية عن السلوك العملي. فالعقل السلوكي الصائب لا يكون إلا إذا سبقه تأمل ومعرفة نظرية بحقيقة الفعل الفاضل وماهيته.

وقد تحدث د. بدوى عن المنهج الفلسفي لسقراط المعروف بالتهكم والتوليد وتطبيق سقراط له، ثم عرض لمذهبه الأخلاقي. وعرض بالذات لفضيلة الصداقة عنده على أساس أن الصداقة كانت شيئا ضروريا بالنسبة إلى سقراط، تبعا لنظرياته في العلم، لأنه مادام يقول إن العلم يتم عن طريق الحوار أى باجتماع الناس للمحاورة، فهو يتم تبعا لهذا بالصداقة وهذه الصداقة تستلزم الحب. وهذا الحب - كما تصوره سقراط - يجب أن يكون الحب المتبادل المشترك ومعناه الرغبة في نفع الآخرين والانتفاع بما يقدمه هؤلاء، فهو من جانبين لا من جانب واحد^(٣٩). وقد ارتفع سقراط بهذا بفكره إلى درجة لم تكن معروفة عند اليونانيين كثيرا من قبل. وإن كانت فكرته عن الزواج أو الصلة بين الرجل والمرأة لم ترتفع إلى هذه الدرجة لأنه اعتبر أن الزواج وسيلة للذرية فقط، ولو أنه مع ذلك كان ينظر إلى المرأة على أنها مثيلة للرجل في كل شيء^(٤٠) وقد يتساءل المرء هل هذا هو رأى سقراط التاريخي أم هو رأى أفلاطون عرضه د. بدوى على أنه رأى لسقراط؟ الحقيقة إننى أميل إلى أنه أفلاطوني خالص، لأن الحديث عن مساواة المرأة بالرجل ورد في محاورة الجمهورية، وهي

محاورة أفلاطونية، كما يجمع على ذلك مؤرخو أفلاطون.

ولقد انتقل د. بدوى بعد ذلك إلى الحديث عن أفلاطون مبتدئاً بالحديث عن حياته مقبباً إياها إلى ثلاث مراحل تطور فكره خلالها: مرحلة التلمذة والطلب التي كان تتلمذه على سقراط فيها هو أبرز أحداثها، ثم مرحلة التنقل والترحال التي بدأت بعد موت سقراط عام ٣٩٩ ق. م وانتهت بتأسيسه للأكاديمية، وقد زار خلالها المدارس السقراطية الصغرى في ميجارا وقورينائية كما زار مصر وبعض بلاد الشرق. أما الطور الثالث فقد بدأ بعد تأسيس الأكاديمية حتى موته حوالى عام ٣٤٨ - ٣٤٧ ق. م. وقد تحدث عقب ذلك عن مؤلفاته التي كان حظها فيها حظاً سعيداً يغبطه عليه كل الفلاسفة الأقدمين، لأن كتبه بين كتب الفلاسفة القدماء وحدها هي التي بقيت كلها، وأرجع د. بدوى ذلك إلى الصورة الأدبية التي كتبت بها فقد كانت جميعاً على هيئة محاورات، اللهم إلا مقالة التعريفات، ثم الرسائل الثلاث عشرة. وقد عرض مؤرخنا للعديد من القضايا أو المشكلات حول مؤلفات أفلاطون مثل مشكلة أصل هذه الطريقة في الكتابة الفلسفية، هل هي طريقة أفلاطونية خالصة أم تأثر فيها بكتابات سابقة؟! وما الأسباب التي جعلته يتجه نحو هذه الطريقة؟ ومشكلة مركز سقراط في هذه المحاورات، فقد كانت شخصية سقراط هي الشخصية الرئيسية في هذه المحاورات باستثناءات محدودة، فهل كان سقراط يعبر فيما يقال على لسانه عن فلسفته هو أم عن فلسفة أفلاطون؟ ويترتب على ذلك مشكلة أخرى تتعلق بكيفية ترتيب المحاورات الأفلاطونية، وعلى أى صورة يتم ترتيبها، هل من خلال موضوعاتها، أم من خلال ترتيبها الزمني؟ وإذا كان من خلال ترتيبها الزمني فكيف نصل إلى هذا الترتيب؟

وقد انتهى د. بدوى بعد عرضه للمناهج المختلفة التي تعرضت لهذه الصعوبات وحاول التغلب عليها، إلى صورة شبه نهائية تقسم المحاورات بحسب ترتيبها التاريخي إلى ثلاثة أقسام بحسب تطور حياة أفلاطون، هي محاورات الشباب، ومحاورات الرجولة ومحاورات الشيخوخة. وهذا هو التقسيم الذى اتفق عليه بين المؤرخين لأفلاطون والمهتمين بتصنيف محاوراته.

ومن أبداع الأجزاء فى هذا الكتاب ما عرضه د. بدوى تحت عنوان «المشاكل الأفلاطونية»، فقد عرض فيه لأهم مشكلات الفلسفة الأفلاطونية وأولها مشكلة وجود أفلاطون فى محاوراته، فقد فعل أفلاطون فى ميدان الفكر ما فعله النحات فى ميدان النحت، فإنه قدم لنا مذهبه محاولاً دائماً أن ينأى بنفسه عن المحاورات التى يتحدث فيها عن هذا المذهب، فلم تظهر له فيه شخصية^(٤١). ومن ثم فكيف نستنبط مذهب فى خضم أحداث محاوراته؟ وبالطبع فإن من المعروف أن سقراط كان هو المتحدث بلسان أفلاطون فى هذه المحاورات، لكن ليس كل ما يقوله سقراط يجب أن ينضاف إلى أفلاطون لأن سقراط ليس شخصية روائية اخترعها أفلاطون اختراعاً، وإنما هو شخصية واقعية تاريخية لها مذهبها الفلسفى المستقل. ومن هنا كانت المشكلة الكبرى: كيف نفرص بين فكر سقراط وفكر أفلاطون وكلاهما ورد على لسان سقراط فى المحاورات الأفلاطونية؟ وقد عرض د. بدوى لسلسلة من المشكلات التى تترتب على هذا التساؤل، سواء نجحنا بالفعل فى الفصل بين أقوال سقراط وآراء أفلاطون فى هذه المحاورات أم لم ننجح، فستظل هناك صعوبات كثيرة ليس من السهل حلها أو حسم أمر معين بشأنها!^(٤٢)

ويترب على مشكلة الصلة بين مذهب سقراط ومذهب أفلاطون وصعوبة الفصل بينهما، مشكلة أخرى تتعلق بما سماه د. بدوى سر أفلاطون أى من هو أفلاطون الحقيقى؟ وطرح الحلول المعروضة من قبل المؤرخين الآخرين لهذا السر، فمنهم من ينظر إلى أفلاطون على أنه مفكر عالم، ومن ثم حاول أن يحذف كل ما يتناقض مع بعضه من محاورات أفلاطون، حتى يخلص إلى مذهب الحقيقى الذى لا يتناقض بين أفكاره! ومنهم من نظر إليه على أنه مفكر فنان، فقالوا إنه لا يسير فى فلسفته على قواعد البرهان، وإنما يدرك الحقائق كلمحات ولمع. وقد انتهوا من ذلك إلى دراسة فكر أفلاطون على أنه فكر متحرك متغير لا تشترط فيه الوحدة المنطقية.

وقد عاب د. بدوى تطرف الجانبين معاً، فأفلاطون - فى رأيه - لم يكن شاعراً باستمرار، وإنما كان يجمع بين الوجدان من ناحية والبرهان المنطقى أو الديالكتيك من ناحية أخرى - ففيمما يتصل بالحقائق الرئيسية التى لا يستطيع الفكر أو اللغة أن

تعتبر عنها كان أفلاطون يلجأ إلى التصور الخيالي غير المنطقي. وأما في الأفكار الأخرى التي يمكن أن يعبر عنها تعبيراً منطقياً بواسطة اللغة فقد كان يسير على المنهج المنطقي أو الديالكتيك^(٤٣).

وفي هذا الإطار عرض د. بدوى بعد ذلك لما أسماه بالشك الأفلاطوني، وقد أخذ كلمة الشك هنا بمعنى البحث وليس بمعناها المعروف عند دارسي الفلسفة، إذ إن معناها الأصلي الاشتقاقي هو البحث^(٤٤)، فالشك الأفلاطوني هو عبارة عن ابتداء البحث، واستمرار في هذا البحث عن طريق إثارة مشاكل جديدة الواحدة وراء الأخرى، وترتيب هذه المشاكل فيما بينها وبين بعض حتى يصل إلى وحدة أو قضية عليا يمكن أن تنحل إليها كل هذه الشكوك، ولكن هذه القضية العامة التي يصل إليها ليست قضية نهائية، بل هي أيضاً وسيلة إلى قضايا أخرى يصل إليها فيما بعد^(٤٥). وقد كان أحرى بمؤرخنا هنا أن يسمى هذه الفقرة بالمنهج الأفلاطوني في البحث الفلسفي وليس بـ «الشك الأفلاطوني»، حتى لا يختلط الأمر على الدارسين فيتصورون أن أفلاطون كان من الشكاك بالمعنى المتعارف عليه بينهم!!

وقد عرض د. بدوى في إطار ذلك أيضاً لمشكلة الأساطير الأفلاطونية ووظيفتها في فلسفته، وأوضح صلة ذلك بمعنى الحقيقة عند أفلاطون^(٤٦).

ثم انتقل بعد ذلك ليكشف عن «أساس الفلسفة الأفلاطونية»، وقد عرض هذا العنوان لـ «نظرية المعرفة عند أفلاطون»، موضحاً التفرقة عنده بين العلم غير الصحيح والعلم الصحيح. ودور الحب أو «الاروس» في اكتشاف الحقيقة والوصول إلى العلم الصحيح، وكذلك عرض لدور الديالكتيك الأفلاطوني الصاعد بما فيه من استقراء ومبادئ منطقية أخرى في المنهج الأفلاطوني للوصول إلى الحقيقة.

وقد بدأ بعد ذلك في عرض جوانب المذهب الأفلاطوني بالطريقة التقليدية المتعارف عليها، حيث تحدث أولاً عن نظرية المثل الأفلاطونية تحت عنوان «نظرية الصور»، والغريب أنه رغم اهتمام د. بدوى الواضح بتحليل وإبراز الاختلافات بين مؤرخي الفلسفة الأفلاطونية حول المصطلحات الأفلاطونية، إلا أنه لم ينشغل هنا ببيان الأسباب التي دعت إلى تفضيل كلمة الصور للتعبير عن «المثل» التي لاقت ما

يشبه الإجماع بين مؤرخى أفلاطون، حيث تترجم كلمة Idea عادة بالمثال وليس بالصورة Form، خاصة وأن كلمة الصورة قد شاعت للتعبير عن نظرية أرسطو الميتافيزيقية فيما يتعلق بتمييزه بين «المادة والصورة»!

على كل حال فقد عرض د. بدوى لثلاثة أقسام لنظرية أفلاطون فى الصور هى : أساس الصور وماهى الصور، وعالم الصور، وقد انتقل بعد ذلك إلى عرض نظريته فى الطبيعيات موضحا الصلة بينها وبين نظرية الصور، إذ تنقسم الطبيعيات أيضا إلى ثلاثة أقسام رئيسية كلها تتصل بنظرية الصور باعتبارها العمود الفقري لمذهب أفلاطون كله، ذلك أن البحث يجب أن يتجه أولا إلى الشيء الذى هو فى مقابل الصور والذى باجتماع الصور وإياه ينتج المحسوس. وهذا الشيء هو المادة، وثانيا لابد من البحث فى الصلة بين العالم المحسوس و الصور. وهذا يكون القسم الثانى من الطبيعيات، وأخيرا لابد من البحث فى الصلة التى تجمع بين الصور والمحسوسات، أو بعبارة أدق علة الحدوث فى الكون وتلك هى النفس الكلية^(٤٧).

وعلى ذلك فقد بدأ عرض آراء أفلاطون الطبيعية ببيان رأيه فى المادة، ثم رأيه فى الصلة بين المحسوسات والصور، وأخيرا تحدث عن النفس الكلية باعتبارها العلة التى تجمع بين الصور و المادة.

وانتقل بعد عرضه للطبيعيات وبناء العالم الطبيعى عند أفلاطون إلى عرض رأيه فى النفس الإنسانية، وركز على عرض براميين أفلاطون على خلود النفس الإنسانية، وبعد ذلك تحدث عن عقيدة التناسخ عنده، وكذلك عن معنى التذكر وأجزاء النفس وقواها لديه.

وبعد ذلك عرض لآراء أفلاطون الأخلاقية من ناحيتين ، الناحية السلبية، والناحية الإيجابية فهو يرى أن أفلاطون يقدم لنا صورتين متعارضتين للخير، ويبرر ذلك قائلا «إنه إذا كان الوجود الحقيقى هو وجود الصورة فكل ما يتصل بوجود الصورة هو الحقيقة وهو الخير، وكل ما يتعارض وهذا الوجود هو الشر، ولما كانت النفس الإنسانية فى اتصالها بالجسم تبتعد شيئا فشيئا وبحسب درجة الاتصال عن الصورة، فإنه كلما كان الإنسان أكثر ابتعادا عن الجسم كان محققا لدرجة أكبر من

الخير. ومن هنا نشاهد أن الصورة العليا للأخلاق الأفلاطونية هي الصورة السلبية^(٤٨). إنها صورة الزهد في الحياة المادية والإقبال على فصل النفس عن الجسد، أي الإقبال على الموت بمعنى إماتة كل العلاقات المتصلة بالوجود الحسى من أجل خلوص النفس إلى حياة الصور وحياتها على هذا الأساس هي حياة تأمل مستمرة للصور^(٤٩).

إذا كانت هذه هي الصورة السلبية للأخلاق الأفلاطونية فإن الصورة الإيجابية لا تتمثل في دعوته إلى الأخذ بشيء من الحياة، وقد بدت نظرة أفلاطون الداعية إلى الجمع بين الصورتين السلبية والإيجابية في محاوره فيلابوس حينما بحث في اللذة وصلتها بالوجود ثم صلتها بالخير، وانتهى فيما يتعلق بصلتها بالخير إلى القول بأن اللذة إن لم تكن خيرا كلها فإنها أيضا ليست شرا كلها، وإنما هي عندما تخلو من الألم نوع من الخير يجب على الإنسان أن يأخذ بحظه منها^(٥٠).

لقد عرض د. بدوى بعد ذلك لآراء أفلاطون السياسية من خلال محاوراته السياسية «السياسى» و«الجمهورية» و«النواميس»، فعرض لنظريته في الدولة المثالية أو المدينة الفاضلة من خلال محاورتي «الجمهورية» و«السياسى» ثم لدولة النواميس من خلال محاوره النواميس.

وانتقل بعد ذلك إلى بيان النزعة الدينية الواضحة في كل مؤلفات أفلاطون من خلال الحديث عن الدين عنده، فأوضح حديثه عن الصانع، وحاول أن يجيب على تساؤل هام: هل أفلاطون من الفلاسفة الموحدين؟ قائلا إن كل ما يمكن استخلاصه في هذا الباب هو أن أفلاطون قال بأن الألوهية هي الواحد، فجمع بين الواحدية والألوهية مما يشعر بشيء من التوحيد، ولكن يجب أن نفهم هذا الكلام كما هو في الواقع فننكر أن يكون الله عند أفلاطون هو الله الواحد المعروف في الأديان، لأن فكرة التوحيد كما هي موجودة في الأديان المختلفة ذات الكتب المقدسة كانت مجهولة تماما من الروح اليونانية كلها^(٥١).

وقد اختتم د. بدوى عرضه لجوانب الفلسفة الأفلاطونية بعرض موجز لنظرية الله، فأوضح أنواع الفن عنده ولمعنى الإبداع والقوة الإبداعية.

(٢) أرسطو (٥٢):

لا يزال حسب رؤية د. بدوى فى صيف الفكر اليونانى حيث يعرض فى كتاب مستقل لفلسفة أرسطو أعظم فلاسفة اليونان وأهمهم ، وذلك عبر ثمانية فصول: تحدث فى أولها عن حياته وتطوره الفكرى معتمداً فى ذلك على دراسة بيجر Jager عن أرسطو والأسس الأولى لتاريخ تطوره الروحى. التى أصدرها فى برلين عام ١٩٢٣ ، وتقوم هذه الدراسة على أساس المنهج التاريخى الذى يقسم التطور الروحى للشخص إلى ثلاثة، أقسام: طور الطلب وطور التنقل وطور الأستاذية. وقد درس أرسطو مقسماً حياته إلى تلك الأطوار الثلاثة، حيث يمثل الطور الأكاديمى من حياته دور الطلب والتلمذة ويمتد هذا الطور فى حياة أرسطو حتى بلوغه سن الأربعين من عمره، وكان أبرز النتائج التى توصل إليها بيجر وعرض لها د. بدوى فيما يتعلق بالصلة بين أفلاطون وأرسطو، أن أرسطو ظل متأثراً بالروح السائدة فى الأكاديمية الأفلاطونية لمدة طويلة وأنه لم يكن فى حالة صراع مع نفسه كما ظن البعض، بل كان - رغم مناقشاته - لأستاذه وفلسفته محباً، والدليل هو مؤلفات الشباب التى كتبها أرسطو على شكل محاورات، ورغم أنها فقدت فإن ما تبقى مثل محاوره أوزيموس « وفى الفلسفة » و«بروتريتيكوس» و«المأدبة» و«السفسطائى» يتضح منه أن أرسطو قد تأثر كل التأثر بأفلاطون^(٥٣) وأنه لا يزال أفلاطونياً مخلصاً^(٥٤).

وقد أكد بيجر ذلك حينما نظر فى طور التنقل من حياة أرسطو، والذى يبدأ عقب وفاة أفلاطون، فوجد أنه رغم مغادرته الأكاديمية - مما تسبب فى الكثير من الإشاعات والأقاويل حول علاقته بأستاذه - ظل مخلصاً للأفلاطونية، فهو لم يغادر الأكاديمية كراهية لأفلاطون ولمذهبه، بل تركها لأن أسوسيبوس - الذى عينه أفلاطون رئيساً للأكاديمية من بعده - قد اتجه بها اتجاهها رياضياً صرفاً وجعل الصور (المثل) أعداداً وكميات منفصلة، وكان أرسطو يعارض ذلك كل المعارضة والحقيقة التى تؤكد مدى إخلاص أرسطو لأفلاطون ولتعاليمه أنه حينما بدأ رحلاته وتنقلاته، واختار أن يذهب إلى «اثرنيه» بأسيا الصغرى التى كان يحكمها هرمياس، وكان بها أراستوس وكورسكوس وهما من الأفلاطونيين المخلصين الذين عهد إليهما

هرمياس بوضع قوانين المدينة، وكان أفلاطون نفسه قد حاول عن طريقهما أن يحقق ما لم يستطع تحقيقه من قبل في سيرا قوصه عند دينيس^(٥٥). ومن ذلك يتضح أن أرسطو ترك الأكاديمية الأصلية في أثينا ليتجه إلى هذه المدينة التي ازدهرت فيها الأفلاطونية، وشارك أرسطو نفسه في نقل الروح الأفلاطونية من أثينا إليها.

ويستمر د. بدوى بعد ذلك في عرض حياة أرسطو وفقا للنتائج التي توصل إليها بيجر، فيحدث في طور التنقل عن علاقته بالإسكندر الذي تولى أرسطو تربيته بأمر من الملك فيليب، فحاول تهذيبه تهذيبا يونانيا راقيا يقرب من المثل الأعلى للتربية الأثينية، ويتولى الإسكندر العرش بعد والده ينتهي الطور الثاني من حياة أرسطو، وكان من أبرز النتائج التي توصل إليها بيجر هنا أن هذا الطور من حياة أرسطو لم يكن خاليا من كل إنتاج فكري، كما كان يجمع المؤرخون من قبل، بل إنه كان - في الواقع - الأساس لكل فلسفة أرسطو^(٥٦). أما طور الأستاذية الذي بدأ بتأسيس أرسطو للوقيون حتى وفاته، فقد عني فيه بوضع الأبحاث العلمية والتاريخية، وركز د. بدوى بعد عرض حياة أرسطو على عرض مؤلفاته وتصنيفها ومشكلة نشرها.

وبدأ في الفصل الثاني في عرض الفلسفة الأرسطية مبتدئا ببيان الروح العامة لها ومنهجها والتقسيم الثلاثي للعلوم عند أرسطو، ثم في الفصل الثالث عرض لنظريات أرسطو المنطقية مبتدئا بعرض موجز لطرق المعرفة عنده، مركزا على الصلة بين العقل والمعقولات وقيمة المعرفة الحسية، ثم انتقل إلى بيان طرق اكتساب العلم لديه فعرض للبرهان بنوعيه: الاستدلالي والاستوائى، وربما يكون من المفيد هنا أن نلفت الانتباه إلى أن د. بدوى هنا قد استخدم الاستدلال بمعنى الاستنباط فوحد بينهما، بينما ينبغي أن نميز بين الاستدلال والاستنباط، فالاستدلال Intern- نوعان: استدلال استنباطى Deduction واستدلال استقرائى Induction فالاستدلال إذن ليس ضد الاستنباط، بل إنه الجنس العام الذى يندرج تحته نوعا البرهان: الاستنباطى والاستوائى.

أما الفصل الرابع فقد خصصه لعرض الفلسفة الأولى عند أرسطو، وقد ميز في عرضه لها بين قسمين، قسم نقدى، وقسم إيجابى. أما القسم النقدى فقد عرض فيه

لانتقادات أرسطو لفلسفات السابقين عليه، حيث انتقد آراء الطبيعيين الأول وانتقد
الذريين والإيلييين وأنكساغوراس والفيثاغوريين، وكذلك انتقد أفلاطون، ونظريته في
الصور (المثل)، وامتد نقده إلى الأفلاطونيين التاليين لأفلاطون، خاصة أسبوسيبوس
وكسينوقراط اللذين انتقدتهما بشدة في مقالى المووالنو من كتاب ما بعد
الطبيعة (الميتافيزيقا).

أما القسم الإيجابي فعرض فيه لمباحث أرسطو الميتافيزيقية الثلاثة، نظريته عن
الجزئى والكلى، أو ما اصطلح المؤرخون على تسميته بنظرية الجوهر أو الوجود. ثم
نظرية التمييز بين الهيولى والصورة أو بين الوجود بالقوة والوجود بالفعل، ثم نظريته
فى الألوهية التى عرض لها تحت عنوان الحركة والمحرك الأول. وقد توسع فى
عرض النظرية الأخيرة حيث عرض لطبيعة الحركة وأزليتها عند أرسطو، وكذلك
للسكون وطبيعته ورد أرسطو على القائلين بالسكون المستمر، ثم عرض للصلة بين
المحرك والمتحرك، وإثبات أرسطو من خلال ذلك للوجود الإلهى باعتبار أن هناك
ضرورة لوجود محرك غير متحرك هو الإله، الذى أوضح أن أبرز صفاته أنه صورة
خالصة، ومن ثم فهو فرد باعتباره صورة خالية من كل هيولى (أو مادة)، كما أنه فعل
محض لا يتعقل إلا ذاته، وتعقله وحياته شيء واحد، أما عن كيفية فعل تحريكه
للكون فهى تتم عن طريق حركة العشق، أى عشق الكون للإله، فيتحرك شوقا إليه،
إذن فتحريك الله باعتباره المعشوق للأشياء، فالأشياء تتحرك بأن تعشق الله وحركة
العشق فى الواقع هى العلة الفاعلية فى هذه الحالة (٥٧).

وقد كشف د. بدوى فى ثنايا ذلك عن تناقض بين وقع فيه أرسطو، فإن حديثه عن
حركة العشق هذه حديث غامض يتنافى مع كثير من أقوال أرسطو الصريحة عن أن
كل حركة تتم فلا بد وأن تتم عن طريق التماس بين المحرك والمتحرك (٥٨).

وقد رد د. بدوى هذا التناقض وغيره من التناقضات التى يكشفها العرض
الموضوعى لآراء أرسطو إلى تفسير هذه الآراء تفسيراً يقارن بينها من زاوية
مذهبية، دون النظر لها من الناحية التاريخية، التى يولها هو ويبيجر - الذى يعتبر أن
نتائج أبحاثه تكون يقينية فى أكثر الأحيان (٥٩) - أهمية كبيرة. وضرب مثالا على ذلك

بكتاب ما بعد الطبيعة المعروف بأنه مكون من مجموعة المقالات المرتبة بحسب حروف الهجاء اليونانية، فترتيب هذه المقالات ويبحث كل واحدة منها على حدة مسألة في غاية الأهمية، فمقالة «اللام» - على سبيل المثال - قد كتب عنها الكثير واهتم بها كثير من الشراح والمؤرخين نظرا لما رأوه فيها من أشياء تختلف عما ورد في المقالات الأخرى. حتى في داخل هذه المقالة نفسها فإن يبجر يثبت ببراہین مختلفة أنه مختلف كل الاختلاف عن بقية أجزاء المقالة^(٦٠). وبالطبع فإن هذه الاختلافات تبدو بالكشف عن كثير من التناقض بين أقوال أرسطو، والحقيقة أن استخدام المنهج التاريخي قد يفيد أكثر في الكشف عن سر التناقض في أقوال أرسطو إذا ما ركز أتباعه على قضية احتمال تدخل تلاميذه في صياغة بعض فقرات من هذه المقالات، فليس من المعقول أن يتناقض أرسطو مع نفسه وهو واضع المنطق الذي يقوم على قانون عدم التناقض!!!، وواضع أسس الكتابة الفلسفية العقلية المنهجية المنظمة!!

أما الفصل الخامس فقد خصصه د. بدوى لعرض فلسفة الطبيعة عند أرسطو، مبتدئا ببيان تحديد أرسطو لموضوع علم الطبيعة، باعتباره العلم الذي يبحث في الأجسام الطبيعية المتحركة، ومن ثم بدأ في عرض آرائه عن الحركة والمكان والزمان وعلاقتها بالحركة. ثم انتقل بعد ذلك لعرض تصوره للعالم الطبيعي، فعرض لتمييزه بين عالم ما فوق فلك القمر وعالم ما تحت فلك القمر، ثم عرض لنتائج أبحاث أرسطو في علم الحياة مبتدئا ببيان منهجه الرئيسي في دراسة الكائنات الحية وتقسيمه لها، وتفرقة بين النبات والحيوان.

وكان من الطبيعي بعد ذلك أن يعرض د. بدوى في الفصل السادس لنظرية أرسطو حول النفس، مبتدئا ببيان تعريفه لها وشرح المقصود بالنفس وانتقادات أرسطو للسابقين عليه، ثم يأخذ في توضيح قوى النفس عنده وحينما يصل إلى شرح القوة الحساسة والقوة العاقلة يأخذ في عرض متداخل لنظريته في المعرفة مع نظريته في النفس كما هو واقع الحال في كتاب النفس لأرسطو^(٦١). وقد ركز في عرضه هذا على بيان مشكلة الكليات عند أرسطو وكيف حلها، ومشكلة العقل

المنفعل والفعال.

أما الفصل السابع فقد خصصه لعرض ثلاثة جوانب من الفلسفة الأرسطية، هي الأخلاق والسياسة والفن. وبالطبع لم تنل هذه الجوانب حقها من الدراسة والعرض لأن كلا منها كان يحتاج إلى فصل مستقل. وإذا كان د. بدوى قد رأى أن يعرضها في هذه العجالة التي لم تتجاوز ست عشرة صفحة فهذا من شأنه وشأن خطته في كتابه، أما أن يقول لن نستطيع أن نتناول السياسة هنا بالتفصيل لأن فيها من التفاصيل والجزئيات ما لا يكاد يعيننا في شيء^(٦٢). فهذا ما لا نتفق معه فيه بالمرّة، فنظرية أرسطو السياسية تكتسب أهميتها من تلك التفاصيل والجزئيات التي أعرض عنها د. بدوى، فقد اتسمت فلسفة أرسطو السياسية بمحاولة عرض الآراء الفلسفية المذهبية لأرسطو مصحوبة بالكثير من الأمثلة الواقعية لأحداث ووقائع سياسية عاصرها، وقام بحصرها مستفيدا بما جمعه من معلومات حول دساتير الدول التي عاصرها في كتابه المفقود «الدساتير» أو «النظم السياسية»، إن الميزة الأساسية لفلسفة أرسطو السياسية هي نزوعه - على عكس أستاذه أفلاطون - نحو الواقعية السياسية ومحاولته التوفيق بين الواقع والمثال^(٦٣).

على كل حال فقد عرض د. بدوى للأخلاق عند أرسطو في ثمانى صفحات، وللسياسة فى أقل من ثلاث صفحات، وعرض للفن فيما تبقى من صفحات الفصل. ويبدأ ذلك العرض بملاحظة هامة مؤداها أن من الخطأ البين أن نتخذ من كتاب الشعر وحده معبرا عن مذهب أرسطو فى الفن، فمذهب أرسطو فى الفن لا يتضح إلا بالنظر فى كتبه عن «الطبيعيات» و«ما بعد الطبيعة» و«السياسة» وكذلك كتاب «الخطابة»، ثم تحدث بعد ذلك باقتضاب شديد عن نظرية أرسطو الجمالية وفكرته عن الفن والإبداع الفنى وعن المحاكاة فى الفن.

وقد اختتم د. بدوى كتابه عن أرسطو بالفصل الثامن الذى خصصه للحديث عن مكانة أرسطو التاريخية، وأوضح كيف أنه كان الشخصية ذات الأثر الكبير الذى لا يدانيه أثر لفيلسوف آخر سواء من ناحية الإعجاب الذى لا حد له بفلسفته لدى

رجال العصور الوسطى، أو من ناحية الحملة والنقد الشديدين له من رجال العصر الحديث.

(ج) خريف الفكر اليونانى:

بدأ د. بدوى هذا الجزء بالحديث عن خصائص الفلسفة اليونانية فى العصر الثالث، حيث تميزت بالاتجاه الأخلاقى العملى، وقد أرجع ذلك إلى تأثيرها بالعناصر الشرقية بعد فتح الإسكندر لبلاد الشرق الذى اعتبره «محنة شديدة على الروح اليونانية لأنه أدخل فيها عناصر شرقية، فمسخ تفكير الحضارة اليونانية ووضعها فى قوالب لا تتلاءم مطلقاً مع طبيعتها، فكانت نتيجة هذا التغيير فى الوضع السياسى أن تحولت النظرة من الوجود والفكر إلى السلوك والعمل، فلم يعد المفكر ينشد من وراء تفكيره أن يدرك مظاهر الوجود، وأن يتبين ما فيه من قوى، وأن يفسر ما تخضع له الطبيعة من قوانين وإنما أصبح كل همه - مادام هذا كله لا يعنيه - أن يوجد لنفسه قواعد للسلوك، والمقصود بالسلوك هنا سلوك الفرد بإزاء نفسه، بمعنى انعكاف الفرد على ذاته ومحاولته إيجاد طمأنينة سلبية بالنسبة إلى نفسه»^(٦٤).
وقد كتب د. بدوى فى ضوء هذه الخاصية عن الرواقية باعتبارها فلسفة تدعو إلى الأخلاق العملية السلبية، كما أنها «ظاهرة التأثر بالنزعات الشرقية»^(٦٥). خاصة إذا لاحظنا أن رؤساء هذا المذهب قد جاءوا من بلدان تقع فى آسيا الصغرى أو فى الجزر الشرقية من الأرخبيل، أو فى بلاد موجودة على الحدود مباشرة بين بلاد الفرس و البلاد اليونانية وهى بيئات كان التأثر فيها بالعناصر الشرقية واضح كل الوضوح.

وقد قسم أتباع الرواقية إلى دورين كبيرين، دور الرواقية اليونانية ودور الرواقية الرومانية. ويمثل الدور الأول مؤسس المذهب زينون الرواقى، ثم تلميذه كليانتمس، وأخيراً كريسيفوس الذى يعد المنظم النهائى والواضع لكل أجزاء المذهب الرواقى. أما الرواقية الرومانية فتمثلها شخصيات ثلاث: إيكاتاتوس ثم سينكا ثم ماركوس أورليوس.

وقد لاحظ المؤلف أن مذهب الرواقية يمتاز بثلاث مسائل رئيسية، الأولى هي أن الفلسفة الحقيقية هي الفلسفة العملية، والثانية أن الفلسفة العملية هي التي تقوم على العمل المطابق للعقل، والثالثة أن العمل المطابق للعقل هو الذى يجرى بمقتضى قوانين الطبيعة^(٦٦).

وقد عرض بعد ذلك للمنطق عند الرواقيين، ولاحظ للوهلة الأولى أن المنطق عندهم كاد أن ينحل ويخرج عن الطريق الأصلي الذى رسمه أرسطو، حيث قسموا المنطق إلى قسمين رئيسيين: القسم الأول هو الديالتيك، والقسم الثانى هو الخطابة. ولم يقدم أية تفاصيل حول هذين القسمين، حيث انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن نظرية المعرفة فى ضوء المنطق مفهوما على هذا النحو الشكلى، فقال إنهم بحثوا أولا فى مصادر المعرفة والأساس الذى تقوم عليه، وعرض لتمييزهم بين الصور الحسية والإدراك الحسى، ثم لنظريتهم حول التذكر باعتباره مصدرا آخر للمعرفة، وعرض كذلك لقولهم إن الصدق والكذب يتوقف كل منهما على درجة الاقتناع النفسى، فما يأتى إلى النفس بقوة ويظهر لها فى صورة الاقتناع يكون صادقا وما يبدو لها غير مقنع فهو كاذب وعلى ذلك فالمعيار ذاتى.

وقد عاد مؤلفنا بعد ذلك مرة أخرى إلى عرض المنطق الرواقى، وقد كان من الأفضل بالطبع عرضه متكاملا قبل أو بعد الحديث عن نظرية المعرفة، وعلى أى حال فقد كان عرضه للمنطق وللمعرفة عند الرواقيين عرضا مقتضبا لم تبرز فيه خصوصية المنطق الرواقى وتميز نظرية المعرفة، لقد عرضهما كمقدمة للتوقف أمام الطبيعيات الرواقية التى خصص لها صفحات كثيرة عرض فيها لأقسام البحث فى الطبيعة عندهم، وهذه الأقسام الرئيسية هى البحث عن علل الوجود الأولى، ونشأة الكون وصفاته، ثم الطبيعة غير العاقلة ثم الإنسان. وتميز عرضه لهذه الأقسام برده الأفكار الرواقية إلى أصولها الأفلاطونية والأرسطية، مما أوضح مدى تأثر الرواقية بمذهبي أفلاطون وأرسطو فى تفسير الطبيعة.

وانتقل مؤرخنا بعد ذلك للحديث عن الأبيقورية مبتدئا بعرض مقتضب لحياة

مؤسسها أبيقور، ثم تحدث عن معنى الفلسفة وتقسيمها عنده، ثم عن نظرية المعرفة لديه، حيث عرض لنظريته الحسية في المعرفة، تلك التي تعتبر أن الإدراك الحسى هو الأصل وبعد ذلك يأتى تكون المدركات أو التصورات.

وقد أوضح د. بدوى فى عرضه للطبيعيات عند الأبيقوريين، كيف أن هذه النزعة الحسية التي تسود نظرية المعرفة هي أيضا التي تسود نظرياتهم الطبيعية وفيما بعد الطبيعة كذلك. وقد كانت هذه الآراء الحسية فى المعرفة، ذات الصبغة التجريبية فى الطبيعيات مجرد تمهيد لفلسفتهم الأخلاقية. وقد عرض فيها لآراء أبيقور حول اللذة وأنواعها، ووجهة نظره فى الطمأنينة السلبية أو الأتراكسيا، وكيف أنها السبيل إلى عدم الخوف من الموت أو من الآلهة وعقابها. وقد أنهى عرضه للأخلاق الأبيقورية بتقييم لها، قال فيه: «إنه إن كانت قد بدأت بمبدأ يخيل إلى المرء أنه حسى نفعى مادى وضيع، فإنها - على العكس من ذلك - قد انتهت بأخلاق سامية كل السمو لا تقل فى نقائها وسموها عن الأخلاق المثالية التي يقول بها رجل مثل أفلاطون^(٦٧).

وقد انتقل بعد ذلك إلى عرض لمدارس الشكاك مبتدئا من مدرسة فوروون(بيرون) التي أكدت استحالة المعرفة الحسية والعقلية جميعا وانتهت إلى تعليق الحكم، وهي فى نظره كانت «مدرسة قصيرة العمر ولم يكن مؤسسوها من ذوى العقول الفلسفية المفكرة، وإنما كانوا أقرب ما يكونون إلى الحكماء الذين يحيون وبواسطة حياتهم يعبرون عن اتجاههم الفكرى^(٦٨).

ثم عرض بعد ذلك لمدرسة الأكاديمية الجديدة مبتدئا بأراء أرسيزيلاسى فى استحالة المعرفة الحسية، وقد قصد أرسيزيلاسى من وراء نقده للمعرفة الحسية أن ينقد فى الآن نفسه ما يقوم عليه الإدراك الحسى وهو النظر العقلى، وتبعا لهذا يمكن القول إنه قصد من وراء هذا إلى إنكار كل معرفة سواء الحسية منها أو العقلية^(٦٩).
. وقد عرض بعد ذلك لآراء كرينادسى الذى يعد فى نظره أهم شخصية أوجدتها الأكاديمية فى ميدان الشك، ومن أهم الشخصيات التي ظهرت فى الشك القديم^(٧٠).

(د) شتاء الفكر اليونانى:

وقد انتقل بنا مؤرخنا بعد ذلك حسب رؤيته المستندة إلى المنهج الحضارى فى التأريخ للفلسفة إلى التأريخ لما أسماه شتاء الفكر اليونانى، وقد بدأ الحديث فيه عن فيلون الذى يمتاز فى نظره عن سبقة من المفكرين اليهود، بأننا نجد لديه لأول مرة الحقيقة الدينية وقد وضعت فى صيغة فلسفية، والمبادئ العقلية الصرفة التى تقوم عليها الحقيقة الدينية، كما نجد المعارضة بين ما يقتضيه العقل وبين ما أتى به النقل واضحة مشعورا بها كل الشعور^(٧١).

وقد عرض بعد ذلك لامتزاج الثقافة اليونانية والثقافة اليهودية لدى فيلون، وأوضح منهجه فى التفسير الرمزي، حيث اتخذ من هذا المنهج أساسا لبيان حقيقة مؤداها أن الأفكار اليهودية توجد بتمامها فى الفلسفة اليونانية بطريقة واضحة مفصلة^(٧٢). ثم تحدث عن صفات الله عند فيلون، وعن نظريته فى اللوغوس، ومصادرها، ومدى تأثيره بهيراقيطس والفيثاغورية المحدثه، ثم تحدث عن نظريته الأخلاقية.

وقد أنهى حديثه عن فيلون وفلسفته بتقييم إجمالى قال فيه إنه يجب أن يضاف إلى حضارة أخرى غير الحضارة اليونانية، وأن لا يعد كحلقة من هذا التيار، وإنما يجب أن نضيفه إلى حضارة أخرى جديدة خلفت الحضارة اليونانية ونعنى بها الحضارة السحرية أو العربية^(٧٣).

ولا أدرى ماذا يقصد مؤرخنا بهذا الرأى؛ وبأى منطق يرى إضافة فيلون إلى ما أسماه الحضارة السحرية أو العربية!! أما كان الأجدر به أن يضيفه إلى تراثه الشرقى القديم، مضافا إليه تأثيره بديانته اليهودية، وكذلك بالفلسفة اليونانية باعتبارها ثقافة العصر، إذ إنه لا علاقة له بالحضارة العربية - إذا كان هناك ما يسمى بهذا فى ذلك الوقت - فما كان موجودا وعاش فى ظله فيلون هو الحضارة المصرية القديمة ممتزجة بمؤثرات الحضارة اليونانية مع مزيج من التراث الدينى اليهودى والمسيحى فيما نطلق عليه اسم مدرسة الإسكندرية الفلسفية.

ولقد عرض بعد ذلك للأفلاطونية المحدثه، وتوقف أمام شخصيتها الرئيسية أفلوطين، فبدأ بالمقارنة بينه وبين فيلون، ثم أوضح طابع الفلسفة الأفلاطونية

المحدثة وعلاقتها بالروح الشرقية وتأثرها بالتجربة الدينية، وهنا أقر د. بدوى الطابع الشرقى لفلسفة أفلوطين، فهي - كما قال فاشيرو في كتابه «التاريخ النقدي لمدرسة الإسكندرية» - فلسفة شرقية بكل معانى الكلمة فى روحها وجوهرها وطبيعتها شرقية، وأما المظهر الخارجى لها فإنه وإن كان يونانيا فإن هذا لا يجب أن يجعلنا نعتقد أن فيها روحا يونانية^(٧٤)، وبالطبع فنحن معه فى هذا الإقرار^(٧٥).

ويتوقف بعد ذلك أمام الصلة بين المسيحية والأفلاطونية المحدثة ومدى تأثير المسيحية فى نشأة هذه الفلسفة، وتحدث كذلك عن مدى تأثير الغنوصية، فأوضح أن مسألة الصلة بين الغنوص والأفلاطونية المحدثة غامضة، إذ لا يمكن القطع فيها برأى نهائى^(٧٦).

وقد تحدث بعد ذلك عن الأدوار الثلاثة التى مرت بها الأفلاطونية المحدثة، فالدور الأول هو دور أفلوطين نفسه، والدور الثانى هو دور يامبليخوس، حيث انقلب ذلك التوازن الذى كان بين الدين والفلسفة فى الدور الأول إلى أن أصبح للدين المقام الأول على يديه، أما فى الدور الثالث الذى يمثله أبرقلس نجد الأفلاطونية المحدثة قد تأثرت بالمشائية.

وقد ركز بعد ذلك على عرض فلسفة أفلوطين مبتدئا بالحديث عن حياته وشخصيته، ثم عن الأقانيم التى قال بها وهى الله وصفاته، ثم العقل الأول ثم النفس، ثم تحدث عن العالم المحسوس لديه، وأوضح كيفية العودة من العالم المحسوس إلى العالم المعقول، وعرض فى ثنايا ذلك لنظرية أفلوطين فى النفس التى أوضح من خلالها حالة الوجد التى تؤدى إلى الاتحاد بالله حيث يكون الإنسان خارجا عن ذاته ومتحدا بالذات الإلهية أو حاصلا على الذات الإلهية أى هو والذات الإلهية شىء واحد.

رابعا: ملاحظات نقدية عامة:

١- لقد التزم د. بدوى فعلا بالتأريخ للفلسفة اليونانية تبعا للمنهج الحضارى الذى ارتضاه، فأرخ للعصر الأول من القرن السادس حتى أنكساغورس، وجعل

للسوفسطائيين دورا خاصا بهم قائما بذاته باعتبارهم التنويريين الذين يمثلون عصر الانتقال فى أى حضارة من دور الحضارة إلى دور المدنية، وعلى أساس هذا الالتزام بالمنهج الحضارى ميز بين ربيع وصيف وخريف وشتاء للفلسفة اليونانية، وحدد الخصائص المميزة لكل عصر من هذه العصور فى ضوء الخصائص العامة للروح اليونانية.. إلخ.

٢ - وقد جاء هذا الالتزام بالنظرة الحضارية الشاملة للفلسفة اليونانية أحيانا على حساب الالتزام بالتأريخ المدقق للتيارات الفلسفية، فلقد أهمل د. بدوى التأريخ لبعض الفلاسفة كما فعل حينما أرخ للسوفسطائيين، حيث اكتفى ببروتاجوراس وجورجياس فقط، ولم يتحدث عن كثيرين غيرهم مثل أنطيفون وهيباس وبرود يقوس وتراسيماخوس وكاليكليس بصورة مفصلة كما فعل مع الأولين.

كما أنه لم يدرس سقراط مع أو بعد دراسته للسوفسطائيين كما وعد فى البداية على أساس أن «سقراط لا يفترق مطلقا عن السوفسطائيين، فلا بد أن ندرس سقراط مع السوفسطائيين»^(٧٧)، وهو يقصد بهذا طبعاً أن دراسة سقراط تكون مع دراسة السوفسطائيين باعتبارهم يمثلون عصر الانتقال ، عصر التنوير.

٣ - أغفل مؤرخنا إغفالاً يكاد يكون تاماً النظر فى حياة الفلاسفة خاصة فلاسفة اليونان الأوائل، فلم يشر إلى أى تفاصيل وردت إلينا عن حياة أى منهم رغم أهمية ذلك بالنسبة لفهم أفكار هؤلاء الفلاسفة وأصولها ومؤثراتها، ورغم أهمية ذلك أيضاً فى بيان الترتيب التاريخى التقريبى لهؤلاء الفلاسفة، باعتبار أن كل ما نعرفه من هذه التواريخ تقريبى أيضاً.

وربما أدى هذا الإغفال إلى بعض الخلط مثلما حدث حينما أرخ د. بدوى لهيراقليطس بعد تأريخه للمدرسة الإيلية، فاعتبر أن مذهب هيراقليطس قد جاء معارضاً لمذهب الإيليين بشكل عام^(٧٨)، رغم أن المعروف أن هيراقليطس يأتى تاريخياً بعد أكسينوفان وفيثاغورس، إذ على الرغم من أنه ليس معروفاً بدقة مولده أو وفاته إلا أنه زهاء عام ٥٠٠ ق.م. بعد فيثاغورس وزينوفان، حيث يشير إليهما فى شعره^(٧٩).

أما بارمنيدس فقد ولد حسب أرجح الروايات حوالى عام ٥١٥ ق. م . ويحدثنا ديوجين لايرتوس أنه ازدهر فى الأوليمبياء التاسع والستين، أي بين عامى ٥٠٤ و ٥٠٠ ق. م. لكن الأرجح أنه ازدهر عام ٤٨٥ أو ٤٧٥ ق.م.(٨٠).

وإذا ما اعتبرنا بارمنيدس كما اعتبره د. بدوى فعلا هو المؤسس الحقيقى للمدرسة الإيلية، فإنه لا ينبغى أن نعتبر فلسفة هيراقليطس قد جاءت كرد فعل للفلسفة الإيلية، أو أن نؤرخ له بعد الإيلية.

٤ - لقد اختتم د. بدوى تأريخه للفلسفة اليونانية ببحث هام عن المصطلح الفلسفى فى العصر اليونانى أوضح فيه تأريخ المصطلح الفلسفى فى الدور الأول للفلسفة اليونانية، ثم استعرض عدداً كبيراً من المصطلحات التى استخدمها فلاسفة اليونان كالمبدأ والهيولى والماهية والعنصر والطبيعة والواحدية والذرة والمذهب المادى والعقل والباطن والعالى والديالكتيك والكم والانسجام ، وهذا التدقيق فى المصطلح وتأريخه يعد أمراً فى غاية الأهمية يقصر فى الاهتمام به الباحثون فى هذه الأيام.

٥- تميزت محاولة د. بدوى فى التأريخ للفلسفة اليونانية عن مثيلاتها بامتلاك صاحبها رؤية واضحة أرخ من خلالها، فقد أرخ للفلسفة اليونانية كثيرون وكانت أهم هذه المحاولات ثلاثة، أولها ليوسف كرم الذى أرخ لها فى إطار تأريخه العام للفلسفة، وهى محاولة رغم تميزها بالدقة والرصانة، إلا أنها قدمت لمجرد التأريخ، واقتدت وجود رؤية عامة محددة للمؤرخ^(٨١). وقد أرخت د. أميرة حلمى مطر للفلسفة اليونانية بشمولية وإسهاب وتميزت محاولتها بالتوازن بين فصولها وأبوابها، وعدم إغفالها لأى من فلاسفة اليونان، أو لأى مشكلة تعرض لها أى فيلسوف منهم، وقد أرخت للفلسفة اليونانية من نشأتها حتى وصلت بها إلى أعتاب العصور الوسطى.

أما المحاولة الثالثة فكانت للدكتور محمد على أبوريان وكان ذلك فى إطار تأريخه العام للفكر الفلسفى، وقد تميزت محاولته بمحاولة إبداء رأى وتقديم الحجج والأسانيد ضد رأى معين أو معه، لكنها افتقدت أيضاً الرؤية المستقلة العامة للمؤرخ، فقد عرض للفلسفة اليونانية فى إطار متابعتة لأنصار المعجزة الغربية

عموما، والمعجزة اليونانية خصوصا(٨٢).

أما محاولة د. بدوى فقد امتازت كما أشرنا سابقا بأن صاحبها قد التزم فيها بالمنهج الحضارى الذى ارتضاه، فحدّد من خلاله خصائص معينة للروح اليونانية، ومن خلالها ميز بين ربيع وخريف وصيف وشتاء للفكر اليونانى، ورغم أننا قد نختلف معه فى تصنيفاته ونتأججه حسب هذا المنهج وتلك الرؤية، إلا أننا لا نملك إلا احترام صاحب المحاولة الرائدة التى فتحت ورسمت الطريق لكل من أرخ للفلسفة عموما، ولللسفة اليونانية خصوصا فى اللغة العربية.

الهوامش:

(١) د. عبد الرحمن بدوي، ربيع الفكر اليوناني، وكالة المطبوعات بالكويت ودار القلم ببيروت، الطبعة الخامسة ١٩٧٩ ص ٧ - ٨

(٢) نفسه، ص ١٠.

(٣) نفسه، ص ١١.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه.

(٦) نفسه.

(٧) نفسه، ص ١٣ - ١٤.

(٨) نفسه، ص ٣٢ - ٣٣.

(٩) نفسه، ص ٣٧ - ٥٥.

(١٠) انظر: نفس المصدر السابق ص ٦٩.

(١١) نفسه ص ٧٠.

والجدير بالذكر هنا أننا نوافق اشبنجلر على رأيه العام هذا في إخراج ما يسمى بالأفلاطونية المحدثة من دائرة الفلسفة اليونانية، فنحن نعتبر أنه لا يوجد ما يسمى بالأفلاطونية المحدثة بل مدرسة الإسكندرية الفلسفية، والتي كان من نتاجها أفلوطين، الذي نعتبره ممثلاً للفكر الفلسفي الشرقي المصري السكندري وليس أحد فلاسفة اليونان كما يؤرخ له دائماً (انظر في ذلك: د. مصطفى النشار: أفلوطين فيلسوفاً مصرياً: وهو بحث ألقى في المؤتمر الأول للجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية بالإسكندرية في نوفمبر ١٩٨٦م، ونشر في الكتاب الأول للجمعية ويكتابنا: نحو تأريخ جديد للفلسفة القديمة - دراسات في الفلسفة المصرية واليونانية، وكالة زوم روسر للإعلام بالقاهرة ١٩٩٢م. وانظر كذلك: د. مصطفى النشار: دور فكر العلية في ميتافيزيقا أبقراطس. بحث منشور بمجلة كلية الآداب جامعة الإمارات العربية المتحدة، العدد السادس، ١٩٩٠م، هامش رقم (١) ص (١٣٥).

(١٢) انظر: د. عبد الرحمن بدوي: نفس المصدر السابق: ص ٧١ - ٧٢.

(١٣) نفسه، ص ٨٤.

(١٤) نفسه، ص ٨٥.

(١٥) نفسه، ص ٨٥ - ٨٨.

(١٦) نفسه، ص ٩٠.

(١٧) نفسه، ص ٩٢.

(١٨) نفسه، ص ١٠٤.

(١٩) نفسه، ص ١٠٦.

(٢٠) نفسه، ص ١٠٨.

(٢١) نفسه، ص ١١٥.

(٢٢) انظر: د. مصطفى النشار: فكرة الألوهية عند أفلاطون وأثرها في الفلسفة الإسلامية والغربية،

ط ٢ مكتبة مديونى بالقاهرة ١٩٨٨م.

- هامش (٢) ص ١٧ - ١٨ .
(٢٣) د . عبد الرحمن بدوى : نفس المصدر السابق : ص ١١٧ .
(٢٤) نفسه ، ص ١٢٥ .
(٢٥) نفسه ، ص ١٥٦ .
(٢٦) نفسه ، ص ١٥٩ .
(٢٧) د . عبد الرحمن بدوى : أفلاطون - مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٤٣م .
(٢٨) نفسه ص ٦ .
(٢٩) نفسه
(٣٠) انظر بحثنا : أرسطو واكتمال المشروع الحضارى اليونانى المنشور فى كتابنا : فلاسفة أيقظوا العالم ، دار الكتاب الجامعى بدولة الإمارات العربية المتحدة ، العين ، الطبعة الثانية ١٩٩٠م ، ص ٩٩ وما بعدها .
(٣١) د . عبد الرحمن بدوى : أفلاطون ص ٨ .
(٣٢) نفسه .
(٣٣) نفسه ، ص ١٤ - ١٧ .
(٣٤) نفسه ، ص ١٧ .
(٣٥) نفسه .
(٣٦) نفسه ، ص ٢٠ .
(٣٧) نفسه ، ص ٢٦ .
(٣٨) نفسه ، ص ٢٧ - ٢٨ .
(٣٩) نفسه ، ص ٥٢ .
(٤٠) نفسه ، ص ٥٢ - ٥٣ .
(٤١) نفسه ، ص ١٠٠ .
(٤٢) انظر : نفس المرجع السابق ص ١٠٠ - ١١٢ .
(٤٣) نفسه ، ص ١٠٩ - ١١٠ .
(٤٤) نفسه ، ص ١١٥ .
(٤٥) نفسه ، ص ١١٦ .
(٤٦) نفسه ، ص ١٢٦ - ١٣١ .
(٤٧) نفسه ، ص ١٧٠ .
(٤٨) نفسه ، ص ٢١٢ .
(٥٠) نفسه ، ص ٢١١ - ٢١٥ .
(٥١) نفسه ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .
(٥٢) د . عبد الرحمن بدوى : أرسطو ، نشرة وكالة المطبوعات بالكويت ودار القلم ببيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٠م .
(٥٣) نفسه ، ص ٢٥ .

- (٥٤) نفسه.
- (٥٥) نفسه، ص ٢٨.
- (٥٦) نفسه، ص ٣١.
- (٥٧) نفسه، ص ١٧٦.
- (٥٨) نفسه، ص ١٧٧.
- (٥٩) نفسه، ص ١٨٦.
- (٦٠) نفسه، ص ١٨٩.
- (٦١) انظر : د. مصطفى النشار : نظرية المعرفة عند أرسطو، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية ١٩٨٧م، ص ٢٨ وما بعدها.
- (٦٢) د. عبد الرحمن بدوي: أرسطو ص ٢٦٤.
- (٦٣) انظر: د. مصطفى النشار: فلاسفة أيقظوا العالم ط٢ ص ٩٩ وما بعدها.
- (٦٤) د. عبد الرحمن بدوي: خريف الفكر اليوناني، وكالة المطبوعات بالكويت ودار القلم ببيروت، الطبعة الخامسة ١٩٧٩م، ص ٦.
- (٦٥) نفسه، ص ١٠.
- (٦٦) نفسه، ١١.
- (٦٧) نفسه، ص ٦٨.
- (٦٨) نفسه، ٧٦.
- (٧٠) نفسه، ص ٧٧.
- (٧١) نفسه، ٨٩.
- (٧٢) نفسه، ص ٩٢.
- (٧٣) نفسه، ص ١٠٨.
- (٧٤) نفسه، ص ١١٥.
- (٧٥) انظر بحثنا: أفلوطين فيلسوفا مصرياً، حيث نوضح الأصول المصرية والشرقية لفلسفة أفلوطين وننتهي إلى أنه من الأجدر بنا أن نؤرخ له باعتباره أحد أعلام الفلسفة المصرية الشرقية القديمة، وليس باعتباره فيلسوفا يونانياً.
- (٧٦) د. عبد الرحمن بدوي، نفس المصدر السابق، ص ١٢٠ - ١٢١.
- (٧٧) د. عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني، ص ٧١.
- (٧٨) انظر : نفسه، ص ١٣٨، ص ١٤٢.
- (٧٩) د. أحمد فؤاد الأهواني فجر الفلسفة اليونانية، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى ١٩٥٤م، ص ١٠٠.
- (٨٠) نفسه، ص ١٢٧.
- (٨١) انظر : ملاحظتنا النقدية على هذه المحاولة في كتابنا: نحو رؤية جديدة للتأريخ الفلسفي باللغة العربية، نشر بمكتبة مدبولي بالقاهرة ١٩٩٢م، ص ٤٠ - ٤٢.
- (٨٢) انظر : ما كتبناه عن هذه المحاولة في نفس المرجع السابق، ص ٥١ - ٦٠.

ملاحظات على بعض إسهامات
الدكتور عبد الرحمن بدوي
في المنطق وفلسفة العلوم

د. ماهر عبد القادر محمد علي

رئيس قسم الفلسفة

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

obeikandi.com

يتناول هذا البحث بشيء من التركيز والإيجاز جوانب من بعض إسهامات الدكتور عبد الرحمن بدوي في مجال الدراسات الفلسفية، وهذه الجوانب يمكن أن نجملها في ثلاثة مجالات أساسية، هي: الجانب الأول يتمثل في فكرة بدوي عن الاستقراء وما تكشف عنها في أبعادها. وأما الجانب الثاني فيدور حول فكرة بدوي عن الفلسفة العلمية وتدايعياتها. وأما الجانب الثالث فيلقى ضوءا كشافا على نظرة بدوي لمشكلة الشكل الرابع من أشكال القياس كما هي موجودة في كتابه «المنطق الصوري والرياضي».

وليس من المتوقع لنظرتنا أن تقدم مسحا شاملا لأعمال بدوي ودراساته العديدة، والتي لا تزال تثري المكتبة العربية والفكر الإنساني حتى يومنا هذا، إذ إن هذا الأمر يحتاج لفريق بحثي كامل ينبغي أن يعكف على تحليل ودراسة كتابات الدكتور بدوي لبيان مكانتها بين أعمال المفكرين والفلاسفة المعاصرين، وما بها من إضافات مهمة للفكر الإنساني بصفة عامة.

عبد الرحمن بدوي والاستقراء

يعتبر الدكتور عبد الرحمن بدوي من أكثر المفكرين العرب شهرة وانتشارا، ويندر أن نجد ميدانا من ميادين الفكر الفلسفي، بصفة عامة، لم يشارك فيه الدكتور بدوي مشاركة الرأي والفكر أو الترجمة والنقل أو الإبداع. ومن هذه الزاوية يحق لنا القول إن هذا المفكر والفيلسوف يشكل ظاهرة فكرية فريدة يندر أن نجد ما يشبهها بين رفاقه من المفكرين في هذا العصر. ولكن بأي معنى يمكن أن يمثل عبد الرحمن بدوي ظاهرة فريدة في مجال الدراسات الفلسفية والفكر عموما؟ وكيف يمكن لهذا البعد أن يشكل منطلقا لدراسات عربية معاصرة يضطلع بها الشبان في السنوات القادمة؟

يقدم لنا الدكتور جميل صليبا - في نص هام - رأيه حول الدراسات الفلسفية في العالم العربي، حيث يلخص مواقف العرب المعاصرين إزاء الفلسفة في ثلاثة مواقف رئيسية هي: الأول، موقفهم إزاء الفلسفة العربية القديمة، ويبرز هذا الموقف في ثلاثة

مظاهر وهي: (١) تحقيق النصوص الفلسفية ونشرها (٢) وضع الدراسات الفلسفية باللغة العربية واللغات الأجنبية للتعريف بالفلاسفة القدماء (٣) ترجمة بعض النصوص الفلسفية القديمة إلى اللغات الأجنبية ، والثاني موقفهم إزاء الفلسفة الحديثة وبرز هذا الموقف في مظهرين هما : (١) ترجمة بعض الكتب الفلسفية من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية (٢) وضع الدراسات الفلسفية للتعريف بالفلاسفة الأوروبيين ومذاهبهم. والثالث تأليف الكتب الفلسفية الأصيلة في الموضوعات المختلفة: كالدراسات النظرية التي نشرها بعض المحدثين باللغة العربية أو اللغات الأجنبية (١) إن نص جميل صليبا يصنف الدراسات ويشير إلى مجالاتها المختلفة، ويمكننا انطلاقا من هذا النص أن نصنف الكتاب والفلاسفة العرب تحت الفئات التي ذكرها جميل صليبا، ولكن إذا جئنا لحالة عبد الرحمن بدوي وحاولنا أن نتبين موضعه في إطار هذا التصنيف (٢) وجدنا أنه يشغل التصنيف بكل أبعاده، وهذا ما جعلنا نطلق عليه المفكر الظاهرة. وأي ظاهرة تحتاج إلى شرح وتحليل وتفسير، ولكن الظاهرة التي نحن بإزائها تختلف عن كل الظواهر الفكرية الأخرى لأنها ليست شبيهة بها، وإنما هي «ظاهرة فريدة» ومبعث التفرد هنا أنه يندر أن تتكرر. وهذا ما جعلنا نؤكد أن دراسة فكر عبد الرحمن بدوي تحتاج لفريق بحثي كامل حتى نعرف أبعاده إبداعه الفلسفي على امتداد ما يزيد على نصف قرن.

وإذا كنا قد أشرنا - منذ البداية - إلى أننا نتناول في هذا البحث بعض جوانب من إسهامات عبد الرحمن بدوي، فإنما أردنا أن نقدم هذه الجوانب لتكون ضوءا كاشفا لدراسات مستقبلية نقوم بها ويقبل عليها - أيضا - أجيال الشباب الذين يتوجهون، في الغالب الأعم، لدراسة الفكر الغربي دون أن يحفلوا كثيرا بالفكر العربي، أو دون محاولة الكشف عن الصلات العلمية والمنهجية بين الفكرين العربي والغربي، على الأقل خلال هذا القرن. إن دراسة الفكر العربي في اتجاهاته ومنحنياته الأساسية يشكل حلقة هامة من حلقات الفكر الإنساني المعاصر.

والاتجاهات السلبية، أو العدمية، التي تحاول أن تجرد الفكر العربي المعاصر من الإبداع أو التفوق إنما هي اتجاهات حادت عن طريق العلم القويم ولم تفهم المعاني الكامنة وراء مصطلح العلم ذاته، وهي أيضا اتجاهات لم تتعلم الفلسفة بصورة

كافية منذ بداية مشوارها العلمى، وجاء دخولها ميدان الفكر الفلسفى بصورة عرضية ادعت من خلالها قدرة ليست لها على فهم الفكر الفيلسوفى فى منحنياته. وهؤلاء أيضا، ومن على شاكلتهم، لن يفهموا أصالة مفكر وفيلسوف عملاق مثل عبد الرحمن بدوى.

إن من أهم مجالات البحث العلمى التى أسهم فيها عبد الرحمن بدوى بصورة مركزة ودقيقة ما دونه عن الاستقراء وفلسفة العلوم فى مواضع متعددة من كتاباته، خاصة أنه حاول أن يقدم لنا فكر تنظيريا عن الاستقراء الذى تناوله بالحديث فى ثلاثة مواضع من كتاباته هى: الأول: كتاب «المنطق الصورى والرياضى» والثانى: كتاب «مدخل جديد إلى الفلسفة» والثالث: كتاب «مناهج البحث العلمى» نتعرف - إذن - على تصور بدوى للاستقراء فى هذه الكتابات.

حاول بدوى فى إطار كتاب «المنطق الصورى والرياضى» أن يبين الأبعاد الجديدة للمنطق إبان عصر النهضة والعصر الحديث بصفة عامة، وما ترتب على هذه الأبعاد من تصورات، وكيف أن الثورة العلميجة التى حدثت جاءت بفعل نظرة العلماء أنفسهم لجوانب المنهج الذى يمكن أن يتبع فى البحث العلمى فالعلماء الجدد خاصة جاليليو وبيكون وديكارت اعتقدوا أن الفكر المجرد غير قادر على اكتشاف الحقائق، وإنما الفكر القائم العينى الذى يقوم على التجربة والاستقراء عند بيكون وجاليليو وعلى العيانات الرياضية والتصورات الخاصة بالعدد والمقدار عند ديكارت هو الذى يؤدى بنا إلى تحصيل العلم وكشف الحقائق^(٣) وقد ترتب على هذه النظرة ضرورة تأسيس منطق جديد يلائم طبيعة الموضوعات المطروحة سواء أكان ذلك فى مجال العلوم الطبيعية أم العلوم الرياضية، ومن هنا بدأت الثورة على المنطق الأرسطى القديم حيث شعر العلماء والفلاسفة أيضا، أن المنطق بحاجة إلى تجديد وإصلاح^(٤) ولكن ما هى صورة التعديل والإصلاح الذى حدث؟ وهل تناول الإصلاح المنطق كعلم له مضمون محدد، أم انصرفت جهود الإصلاح والتجديد إلى المنهج وما استتبعه من تصورات تشكل مضمونه؟

إن ثورة التجديد والإصلاح فى رأى بدوى شكلت نقطة انطلاق مهمة لتأسيس العلم الحديث ككل، ذلك لأن العلوم الطبيعية بدأت تدرك أن مقومات الأساسية

وظواهرها تحتم الإتجاه إلى دراسة الواقع المشخص، ولذا لجأت إلى التجربة والملاحظة في أوسع معانيها، فالملاحظة يجب أن تكون في أشد الظروف ملاءمة وتنوعاً ودقة. والتجربة يجب أن تكشف لنا عن ارتباط العناصر في أشد الظروف ملاءمة وتنوعاً ودقة. والتجربة يجب أن تكشف لنا عن ارتباط العناصر بعضها ببعض على أساس قوانين عامة بسيطة^(٥) والملاحظة والتجربة - معاً يشكلان قوام العلم التجريبي الحديث لأنهما قوام الاستقراء العلمي، ومن ثم شكل الاستقراء «المنهج الذي يمكن من تحصيل هذا النوع من العلم»^(٦) ولكن ما هو نوع الاستقراء الذي يعتقد بدوى أنه السبيل إلى تحقيق غاية العلوم الطبيعية وإحراز التقدم فيها؟

يذكر بدوى أن الاستقراء الذي يعمل على تقدم العلوم الطبيعية إنما هو الاستقراء الناقص في مقابل الاستقراء الكامل عند أرسطو، ومن ثم فإنه إذا كان الاستقراء الكامل عند أرسطو يقينياً فإن الاستقراء الناقص ليس تام اليقين. وقد ارتبط هذا التصور عند بدوى بتصوره للمعرفة من حيث هي تدرج في قسمين، «معرفة برهانية» ومعرفة استقرائية: الأولى تقوم على حقائق العقل Verités de raison والثانية على حقائق الواقع Verités de faits على حد تعبير ليبنتس Leibniz فتكون من هذا كله منهجان: منهج استدلالى يشبه منهج القياس ولكنه أعم وأخصب منه، ومنهج استقرائى أو تجريبي يقوم على الملاحظة والتجربة^(٧) وفي هذا السياق عمد «بدوى» إلى إثبات نقده للاستقراء الكامل مشايعة للتقليد المتبع لدى المفكرين، لأنه مجرد إحصاء ولا يدل على حقيقة الاستقراء الذي يعبر عن الارتباط الضرورى بين الأشياء^(٨) وتأسيساً على هذا الفهم تبين بدوى أن الاستقراء الناقص لا يحتاج إلى إحصاء كل الحالات وإنما يستند إلى حالات قليلة وهو ما نلمسه من عبارته التي يقول فيها «فليست مهمة الاستقراء إثبات محمول يصدق على كل الأحوال، بل معرفة الارتباط الضرورى بين الأشياء بعضها وبعض، على أساس قوانين عامة كلية تصدق من بعد في الواقع على كل الأحوال، وهذا الارتباط الضرورى لا يحتاج كى يدرك إلى استقراء كل الأحوال، بل يكفى بضع أحوال قليلة لاستنتاج القانون العام»^(٩) ويأتى تأكيد بدوى على هذه الخاصية فى إطار حديثه عن الاستقراء التام والاستقراء الناقص عند أرسطو، وكيف أن الاستقراء الناقص أصبح

علامة العلوم الطبيعية في العصر الحديث لأن رجال النهضة أسسوا العلم الجديد «على الملاحظة والتجربة وعلى تحليل الموضوعات التي تقدمها لنا الطبيعة تحليلاً يستخرج عناصرها أولاً من أجل إمكان تركيبها من جديد»^(١٠).

إن أهم ما نلاحظه على نظرة بدوى حول الاستقراء فى إطار كتاب «المنطق الصورى والرياضى»، أنها جاءت كإشارة إلى الثورة الجديدة فى ميدان العلم الحديث، وبيان الملامح العامة للإصلاح والتجديد المنطقى فى العصر الحديث. وهذه النظرة لا تقصد أصلاً إلى تناول الاستقراء أو العلم التجريبي تفصيلاً، خاصة وأن موضوع الكتاب هو المنطق الصورى والرياضى^(١١).

أما كتاب بدوى «مدخل جديد إلى الفلسفة» فقد عرض فيه لموضوعات شتى عن الفلسفة، وربما كان مدخل بدوى الجديد للفلسفة مختلفاً عن الكتابات التى دوت بالعربية أو اللغات الأوروبية عن المدخل إلى الفلسفة. ومع أن المدخل دائماً يعنى تبنى وجهة نظر محدودة حول الموضوع الذى يريد الكاتب أن يعرض له، إلا أن مدخل بدوى جاء عرضاً لمداخل عدد كبير من المفكرين حول الفلسفة، فى الوقت الذى كنا ننتظر فيه خلاصة فكر بدوى فى هذا الجانب.

وواقع الأمر أن بدوى عرض لنا بعض مقتطفات تشير إلى طريقة فهمه للاستقراء، فى ثنايا حديثه عن الاستدلال والاستقراء، إذ كتب يقول: «ولا فرق فى هذا بين الفلسفة، و العلوم الرياضية والطبيعية، اللهم إلا فى نصيب كل منهما فى استخدام منهجى الاستدلال deduction والاستقراء والتجريب، فإن الفلسفة أكثر اعتماداً على الاستدلال منها على الاستقراء والتجريب، بينما الرياضيات استدلالية محضة، والعلوم الطبيعية تجمع بين قليل من الاستدلال وكثير من الاستقراء والملاحظة والتجريب^(١٢) ولكن هل حقاً لازالت العلوم الطبيعية تجمع بين قليل من الاستدلال وكثير من التجريب والاستقراء على ما يقول بدوى. إن العلوم الطبيعية باتت الآن أكثر اعتماداً على الاستنباط، وأصبح الاستقراء بالنسبة لها يحتل المرتبة الثانية^(١٣)، وهو ما لم يدركه بدوى الذى تبنى أيضاً رأياً غريباً عن الفلسفة التى يرى أنها لا بد وأن تعتمد على العقل والمنهج العلمى والاستقراء والتجريب^(١٤) إن القول باعتماد الفلسفة على التجريب يفقدها خاصيتها العقلية المميزة لأنها فى هذه

الحالة لابد وأن تصبح علماء، والفلسفة ليست كذلك، وبدوى ذاته يدرك أن الفلسفة تفسد على نحوين: إذا انقطعت عن العلم، وإذا استغرقت نفسها فى العلم^(١٥) كما يدرك أيضا ويوعى «أن المنهج الذى تلتزمه الفلسفة فى كل أبحاثها هو المنهج العقلى»^(١٦) فهل يتسق إذن ما يذهب إليه بدوى فى هذين النصين؟ إن الفلسفة إذا توحدت بالعلم توحدًا تامًا وتبنت منهجه وخطواته وعمدت إلى الملاحظة والتجريب، تستحيل بالضرورة إلى علم، ولا تصبح نشاطًا عقليًا حرا فعلا يرتكز على النقد العقلى بالدرجة الأولى. فهل أراد بدوى أن يجعل من الفلسفة علماء، ومن ثم تصبح فلسفته مندرجة تحت تيار اللافلسفة، أم ماذا؟ هذا ما لم يطلعنا عليه بدوى حتى نهاية تدوينه للمدخل.

لكننا نجد بدوى فى إطار حديثه عن «مناهج البحث العلمى» فى الكتاب الثالث، يناقش المنهج التجريبي فى مشكلاته وأسسها مناقشة موسعة على الطريقة الفرنسية، ويذكر أن «مسألة أساس الاستقرار تدرس عادة على أنها تتألف من مسألتين: الأولى مسألة المبدأ أو المبادئ التى تقوم عليها فكرة المنهج التجريبي نفسه، وثانيا: مسألة الضمان الذى يضمن لنا الانتقال من الحالات الجزئية المشاهدة إلى وضع القانون العام^(١٧) بعد أن يتتبع بدوى المسألة ويناقشها عند لاشلييه ولالاند وغيرهما، ينتهى إلى أن البحث فى هذا الجانب لن يطلعنا على شيء أكثر من أنه لكى يقوم العلم لابد وأن نفرض الجبرية، والجبرية الدقيقة إلى أقصى حد، وأنه يجب ألا نتوقع تغيرا مفاجئا للقوى المؤثرة فى الكون، ولا نفرض أى تدخل خارق للطبيعة فى ظواهر الطبيعة، وعلينا أن نؤمن بالجبرية المطلقة والحتمية المطلقة الموجودة فى الطبيعة بأقصى حد^(١٨). وبعد أن يقدم لنا بدوى هذا النص يزودنا بنص آخر مهم يقول فيه: «وهذا الإيمان - ككل إيمان - مصادره فحسب أى شيء نصادر عليه ونفترضه افتراضا ولا أساس له من الواقع، إن كان ثمة بعد مجال للتحدث عن أى واقع^(١٩) إن هذا الرأى من جانب بدوى يجعل رأيه حلقة من حلقات العلم التجريبي التقليدى الذى ساد حتى نهاية القرن التاسع عشر، ويشير إلى أن نظرية للعلم ونظرياته لازالت تقف عند حدود المعرفة العلمية السابقة على العلم المعاصر، فنصوصه السابقة تكشف عن بعض الجوانب المهمة، والتى منها: أولا: أن مسألة

افتراض الجبرية الصارمة والحتمية المطلقة لم تعد حديث العلماء، لقد شغلت هذه المسألة علماء القرن التاسع عشر، وسادت بعض الكتابات المعاصرة خاصة الفرنسية أثناء تناولها لكتابات حقبة ما قبل القرن الحالى، وما قبل العلم المعاصر، وثانيا: أن هذه الفكرة الجبرية جعلت بدوى ينفى إمكانية حدوث تغيرات مفاجئة، أو بعبارة أخرى خروج على العادة والمألوف، وهذه المسألة عرفت فى الفلسفة الحديثة منذ عصر هيوم الذى نبه عليها، وعرف العلماء أيضا أن هناك استثناءات وأنه لا يمكن لنا أن نتنبأ بيقين تام، وإنما على سبيل الاحتمال لإمكانية ظهور حالات فى المستقبل تخالف ما ألفناه. وثالثا: إن قوله بالحتمية المطلقة والجبرية الصارمة على طريقة الفرنسيين أدى به إلى نفى الوجود الخارجى الذى تجسده ظواهر الطبيعة، وهو ما يبدو من عبارته «إن كان ثمة بعد مجال للتحدث عن أى واقع» فهل أراد بدوى أن ينتقل بالحديث من مستوى الوعى والوجود إلى مستوى اللاوجود لأنه لا مجال للحديث عن أى واقع؟ أم ماذا؟

فكرة بدوى عن الفلسفة العلمية

والواقع أن الدكتور «عبد الرحمن بدوى» الذى كتب على امتداد أكثر من نصف قرن تقريبا. فى شتى مجالات الفكر الفلسفى، شارحا وموضحا، زدنا بنظرة فلسفية حول مسألة الفلسفة العلمية، وهو دائما يحاول فى كتاباته أن يخلق المناسبة للفكرة التى يريد الحديث عنها، أو حتى يلمح لها من بعيد. ولذا وجدناه حين تحدث عن شليك مؤسس حلقة فيينا وإسهاماته، فى كتابه الذى فضل أن يكون عنوانه «مدخل جديد إلى الفلسفة» يتناول العلاقة بين الفلسفة والعلم، وفكرة الفلسفة العلمية. ولا ريب أن الدكتور بدوى فهم بدقة موقف شليك والوضعية المنطقية من الفلسفة كما فهم أيضا فكرتهم فى الاتجاه إلى العلم، وفى الحالتين لم تسلم الوضعية المنطقية من إشارات الدكتور «بدوى» النقدية والصريحة وكيف لا والوجودية تقف على طرف نقيض من الوضعية.

إن فكرة الإيضاح التى كانت بمثابة الهم الأول للوضعية هى محور حديث الدكتور «بدوى» إذ لا يمكن أن يتحقق الإيضاح إلا من خلال رابطة تعاون وثيقة بين

الفلسفة والعلم، والعلماء الذين هم على قدر كاف من الثقافة الفلسفية الراقية يدركون هذا، أما من يفضون غلاف العلاقة بين الفلسفة والعلم، كما يفعل أنصار الوضعية، فإن موقفهم لاشك «يفضى عادة إلى نمو غير متعمد لفلسفة رديئة»^(٢٠) كما يقول الدكتور «بدوى» الذى «يستنتج من هذا أن الفلسفة متغلغلة فى العلم حتى النخاع، إنها المعنى الباطن الذى يزود العالم بالزاد العلمى ويرشد عمله المنهجى»^(٢١) وفى هذا السياق فإن بدوى فهم بدقة متناهية جوهر العلم وروحه الأصيلة وهو فى هذا الفهم يصدر عن اتفاق فى الرؤية مع فلاسفة العلم المعاصرين والعلماء أنفسهم. وتأسيسا على هذه الرؤية وجد الدكتور «بدوى» أنه لا غضاضة على الإطلاق فى الحديث عن الفلسفة العلمية رغم أنه لم يصرح بالمصطلح ذاته فى هذا الموضوع. ولكن بأى صورة يمكن أن يكون هذا الحديث.

إن إدراك الدكتور بدوى لعلاقة التأثير المتبادلة بين الفلسفة والعلم، جعل المسألة واضحة بالنسبة له إذ الفلسفة يمكن أن تسمى علما بالقدر الذى به تفترض العلوم مقدما. ولا تقوم للفلسفة قائمة خارج العلوم وبمعزل عنها. وعلى الرغم من إدراك الفلسفة لخصائصها المستقلة المتميزة، فإنها لا تنفصل عن العلم^(٢٢).

يتضح لنا ، من النص السابق أن الدكتور «بدوى» ينظر لمسألة الفلسفة العلمية - إذا ما قبل المصطلح من قبل الفلاسفة - على أنها فى دائرة العلاقة بين الفلسفة والعلم من حيث إن الفلسفة تقدم للعلم زاده المعرفى، وأساسه الإستمولوجى الذى يجعله نبراسا له، فما اتفق مع أساسياته لم يتركه، وماشذ عن أصوله وقواعده نبذه وتخلص منه. وهنا نلمح جوانب أساسية فى فكر الدكتور بدوى حول العلاقة بين الفلسفة والعلم فى أكثر من جانب وأية ذلك أن العصر وإنجازاته، ونجاحاته وإخفاقاته، والفيلسوف أو المفكر هو بطبيعة الحال واحد من الناس، ولا بد أن يكون قادرا على الفعل مؤثرا فيما حوله، لا منفعلا سلبيا، يقف ميشدوها أمام ما يحدث فى العالم من حوله، ولذا فإن «كل من يشتغل بالفلسفة أو (يتفلسف) لابد له أن يكون على معرفة بالمنهج العلمى»^(٢٣) حتى يستطيع بطبيعة الحال أن يتحاور مع علماء عصره، ويناقشهم فى علومهم. وهذا أدق تصوير للجانب الإيجابى لدور الفيلسوف. ولكن الفيلسوف أو المفكر الذى يسمح لتأثيرات العصر أن تترك بصمات سلبية

على فكرة وتجعله كالجلد حين تُؤخذ فيه الإبرة، هذا الإنسان يفشل بطبيعة الحال في إدراك العلم في مقوماته ومنهجه وتذله أفكاره في متابعة التقدم، والانخراط في التغييرات التي تتلاحق حوله وهو واقف لا يحرك ساكنا . لاشك أن هذا معنى آخر يمكن استخلاصه من رأى الدكتور بدوى القائل: «أى فيلسوف لم يدرّب على المنهج العلمى ويخفق فى متابعة الاطلاع العلمى باستمرار لابد أن يكون عمله ناقصا»^(٢٤) لأن الفيلسوف فى هذه الحالة لن يضيف ما هو جديد إلى عالم الخبرة والواقع، وسوف لا يترك فكره بصمة إيجابية على مسيرة التواصل الحضارى. ووفق هذا المنظور فإن الفلسفة يمكن أن تسمى علما بالقدر الذى به تفترض العلوم مقدما، إذ لا يمكن للفلسفة أن تنعزل عن العلم رغم خصائصها المتميزة عنه.

- ٣ -

مشروعية الشكل الرابع من أشكال القياس

احتلت مشكلة الشكل الرابع من أشكال القياس مكانة مهمة فى إطار الأبحاث والدراسات المنطقية لدى المناطقة المحدثين على وجه الخصوص، اعتبارا من السؤال الآتى: هل وضع أرسطو الشكل الرابع أصلا؟ أو هل هناك مشروعية للحديث عن الشكل الرابع من أشكال القياس؟ إن هذا السؤال شكل نقطة حوار هامة بين الكتابات المنطقية على مختلف اتجاهاتها وربما كان السبب فى هذا التزام الدراسات المنطقية - التى تناولت المنطق الأرسطى بالدراسة والتحليل - بكل ما حدده المعلم الأول فى متن دراساته الأولى التى تناهت للشرح من بعده، وكأن التراث المنطقى الأرسطى لابد وأن يظل جامدا استاتيكيًا لا يتبدل ولا يتغير. إننا هنا نختار الحديث عن مشكلة الشكل الرابع من أشكال القياس كواحدة من المشكلات ، أو الموضوعات ، المنطقية التى أثارت نقاشا منطقيا وفلسفيا فى ثنايا تناول عبد الرحمن بدوى لأشكال القياس.

بيد أننا لن نكتفى بعرض وجهة نظر بدوى عن مشكلة الشكل الرابع وإنما سوف نتناول رأيه مقارنة بوجهات النظر الأخرى لنبين مكانة رأيه بين الدراسات الأخرى،

وأهمية هذا الرأي أو ذاك، وربما كان من المناسب بمكان أن نشير أيضا إلى أن مشكلة الشكل الرابع من أشكال القياس لازالت قيد البحث والنظر من جانب المنطقة والدارسين للمنطق الأرسطي والتقليدي معا لأهمية أبعادها التاريخية، خاصة فيما يتعلق بالاجتهادات حول تفسير المنطق الأرسطي ودور أتباع أرسطو وتلامذته، وموقف مدرسة المناطق العرب على اختلاف اتجاهاتهم باعتبارهم يمثلون أكبر وأوسع تيار فكري ومنطقي ظهر في العصور الوسطى، وللإضافات التي قدمت من جانبهم، خاصة من خلال الشروحات المنطقية لأعمال أرسطو ذاته.

وتجدر الملاحظة أن عبد الرحمن بدوي في كتابه «المنطق الصوري والرياضي» بدأ حديثه عن أشكال القياس وشروط كل شكل منها، ومميزات الشكل، وضروره المنتجة بما في ذلك الشكل الرابع الذي أشار إلى قواعده وضروره المنتجة، ثم انتقل مباشرة بوضع السؤال: «هل يوجد شكل رابع مستقل؟»^(٢٥) كان هذا السؤال من جانب بدوي علامة توقف هامة عند حوارهِ مع التراث المنطقي قديمه وحديثه، ولكن قبل هذا الموضوع بصفحات قدم بدوي إشارة تفيد أنه سوف يناقش مشكلة الشكل الرابع حيث يذكر «وحيثما نرى قياسا يظهر بمظهر الشكل الرابع فالأصل في هذا أننا جعلنا الحد الأكبر هو الحد الأصغر، والكبرى هي الصغرى. وأرسطو لم يعرف هذا الشكل، وإنما اخترعه كلوديوس جالينوس. ورجال العصور الوسطى اختلفوا فيه: فمنهم من رفضه ومنهم من اعترف به، سواء بين المناطق المسلمية والمسيحية. ثم جاء لاشلييه Lachelier فبرهن على أنه لا يوجد بالضرورة غير ثلاثة أشكال، ولا يمكن أن يوجد شكل رابع ضرورة»^(٢٦)، ما الذي يطلعنا عليه هذا النص الذي ذكره بدوي في حديثه عن الشكل الرابع؟ حتى نقف على حقيقة موقف بدوي يجب علينا أن نخضع النص لعملية تحليل المضمون Content Analysis لنقف على حقيقة ما يذكره.

يكشف النص السابق عن معاني مهمة يجب أن ننتبه لها وهي: أولا: قول بدوي «نرى قياسا يظهر بمظهر الشكل الرابع». هذا القول يشير ابتداء إلى اعتقاد بدوي بأنه لا وجود أصلا للشكل الرابع، أو لا يمكننا إلا الحصول على الشكل الرابع. وهذا القول لا يتفق مع ما يذكره من إن الشكل الرابع ينتج من وضع الكبرى مكان

الصغرى، وجعل الحد الأكبر هو الحد الأصغر، ويتعارض أيضا مع ما يذكر بعد ذلك تعليقا على رأى لامبير Lambert الذي أراد أن يستشهد به ليبين أهمية الأشكال القياسية وذكر قوله إن الشكل الرابع إنما هو لاكتشاف الأنواع المختلفة لجنس ما أو استبعاده^(٢٧) ثم علق عليه برأى من عنده هو - أى عبد الرحمن بدوى - يقول فيه «ومن هنا أمكن إرجاع الرابع إلى الثانى أو الأول، لأنه لتمييز الأنواع الداخلة تحت جنس يكفى بيان تحصيل الشيء لصفة نوعية أو التمييز بين عدة صفات نوعية^(٢٨) وهو فى هذا يتفق مع ما ذهب إليه على سامى النشار فى تعليقه على رأى لامبير مؤكدا أن «الشكل الرابع، لاكتشاف الأنواع المختلفة لجنس من الأجناس، أو لاستبعاد أنواع من جنس لا تندرج تحته^(٢٩) فكان بدوى والنشار يتبينان مدخلا واحدا للتعليق على رأى لامبير حول الشكل الرابع، انطلاقا من نظرية الأجناس والأنواع. **ثانيا** : ما يذكره بدوى من أن الشكل الرابع اخترعه كلوديوس جالينوس. إن هذا التحديد يشير إلى أن الشكل الرابع إضافة لاحقة على أرسطو وأنه لم يوجد لدى أرسطو أصلا ولو كان قد وجد لكان قد نص عليه، وهو ما لم يحدث. ومن ثم فإن متن المنطق الأرسطى تعرض للتبديل والتغيير فى عصر جالينوس ويؤيد هذا المعنى ما يذكره بدوى فى نص لاحق من أن ابن رشد يذهب إلى أن جالينوس هو أول من قال بوجود شكل رابع مستقل^(٣٠) وهذا أيضا ما ذهب إليه على سامى النشار^(٣١) لكن بدوى والنشار يقرران معا أن ثيوفراسطس هو أول من تكلم فى هذا الشكل^(٣٢) بيد أن فكرة اختراع جالينوس للشكل الرابع وهو ما يقرره بدوى تتعارض مع ما يذكره من أن أرسطو «يعترف بإمكان الاستنتاج بطريق غير مباشر فى الشكل الأول، وذلك إما بعكس النتيجة عكسا مستويا فقط، أو بعكسها عكسا مستويا مع وضع المقدمتين الواحدة مكان الأخرى فينتج عن ذلك خمسة أضرب ملحقة بالشكل الأول تعد أضربا غير مباشرة فى هذا الشكل»^(٣٣) وفى إطار السياق ذاته يرى النشار هذا الرأى مثبتا أنه يوجد فى منطق أرسطو ما يسمح لنا باستخراج ضروب الشكل الرابع^(٣٤). وعند هذه النقطة نجد أن ما يذهب إليه بدوى من أن جالينوس اخترع الشكل الرابع اختراعا يتعارض تماما مع رؤيته الذاتية والمنطقية أن أرسطو يعترف بإمكان استنتاج ضروب الشكل الرابع من الشكل الأول

بصورة غير مباشرة، وهو ما نجده عند أرسطو فعلا في متن منطقته، فإذا كان أرسطو قد عرف كيفية التوصل إلى ضروب الشكل الرابع، فكيف يمكن أن ينكره. نستكمل تحليل هذا الجانب بعد أن ناقش النقطة الثالثة والرابعة التي يتضمنها رأى بدوى في نصه السابق.

ثالثا: إشارة بدوى إلى أن «المناطق في العصور الوسطى اختلفوا حول الشكل الرابع» تفيد هذه الفقرة أن وجهات النظر انقسمت بين من يرى أنه لا أهمية للشكل الرابع ومن يرى أهمية الشكل الرابع، ولم يقدم لنا بدوى رأيه الخاص حول حقيقة هذا الاختلاف والآراء التي قدمها بدوى ركزت على أهمية الشكل الرابع دون أن تقدم تحليلا منطقيا لتلك المسألة أو حتى بيان وزنها المنطقي بالنسبة للأشكال الثلاثة الأخرى.

رابعا: اعتقاد بدوى أن لاشلييه في العصر الحديث برهن على أنه لا يوجد شكل رابع، واستشهاده في ذلك بنص لاشلييه الذي ذكره رابيه Rabier في كتابه (المنطق) حيث يقول لاشلييه «ليس ثمة مبدأ رابع ولا شكل رابع، وكل ما هناك ضروب غير مباشرة تستخلص من الشكل الأول (ويمكن استخلاص مثلها من الشكلين الآخرين) إما بالعكس المستوي للمقدمات أو بالعكس المستوي للنتيجة. وهذه الضروب الخمسة هي المعبر عنها بالفاظ، Dabities, Fapesmo . Delantes, Baralipton, Fresisomorom التي وضعت في الأبيات التذكيرية بعد الضروب المباشرة للشكل الأول: فالثلاثة الأولى منها ليست في الواقع سوى الأضرِب Barbara, Daril, Celarent وقد عكست نتيجتها عكسا مستويا، والضريان الأخيران يرجعان إلى Ferio بوضع المقدمتين الواحدة مكان الأخرى (الرابع فقط) وعكس كل منهما عكسا مستويا. ويقال إن الفيلسوف الطبيب جالينوس هو «أول من فكر في جعل هذه الأضرِب مكونة لشكل مستقل، ولكن هذه الفكرة خاطئة من أساسها، قد هاجمها جميع المناطق في العصور الوسطى ولم تبدأ تظهر بشيء ممن التأييد إلا في عصر النهضة»^(٣٥) هذا نص ما يذكره بدوى من كلام لاشلييه، وهذا النص يشكل سياقاً تبريريا، وليس برهانا على ما يقطع به بدوى من أن لاشلييه قد برهن على عدم وجود شكل رابع، إن الفارق بين سياق التبرير

وسياق البرهان، جد دقيق، فالتبرير Justification يقدم لنا تفسيراً مقبولاً ومعقولاً بدرجة كبيرة، وهذا التفسير قد نقف أمامه تفسيرات أخرى مختلفة ومباينة تماماً، مقبولة ومعقولة أيضاً بدرجة متكافئة على حين أن البرهان يستند إلى أدلة منطقية قاطعة ومحددة اكتشاف أو نظرية منطقية تقرر حقائق تستند بالبداهيات وأوليات ليست موضع خلاف. فهل تبين عبد الرحمن بدوي الفارق بين السياقين في نصه؟.

تكتمل اشارتنا لرأى بدوي حول الشكل الرابع من خلال رأيه أن ابن رشد كان أول من ذهب إلى أن جالينوس هو القائل بوجود شكل رابع مستقل، وابن رشد لا يتفق مع رأى جالينوس، وكذلك بعض الفلاسفة العرب السابقين عليه مثل ابن سينا والغزالي. لكن لم يبين لنا بدوي أوجه عدم اتفاق ابن رشد مع رأى جالينوس، بل اكتفى بتقرير النتيجة دون أن يكشف عن مقدماتها. وواقع الأمر أن هذا الرأى الذى ذهب إليه بدوي وقرره النشار أيضاً^(٣٦) يحتاج لمناقشة وتحليل. إذ السياق الذى يقرره بدوي يقول «أما ابن رشد فلا يتفق مع جالينوس فى هذا ومن قبله فعل ذلك كثير من الفلاسفة العرب، وعلى رأسهم ابن سينا والغزالي»^(٣٧).

إن الكتابات المنطقية التى دونها ابن سينا والغزالي لم تتناول الشكل الرابع أصلاً، ولم تتحدث عن مشكلة له، أو حتى عن كيفية الحصول على بعض ضروبه عن الشكل الأول بطريقة غير مباشرة، كما سبقت الإشارة. وقد التزمت الكتابات العربية السابقة على ابن رشد فى نظرتها للمنطق بما انتجه الفارابى الذى عرف بأنه «المعلم الثانى» ولو كانت المشكلة عرفت لدى الفارابى ومن جاء بعده من المناطق لأشاروا إليها على الأقل. وكتابات جالينوس كانت معروفة للفارابى وابن سينا والغزالي تماماً مثل كتابات أرسطو. كانت الترجمات العربية القديمة متوفرة. ومع هذا لم تظهر المشكلة إلا فى عهد ابن رشد. ومن الواضح أن الفارابى اعتمد على الترجمة العربية لمنطق أرسطو وأعمال جالينوس أيضاً، ولا نستبعد أن يكون قد قرأ الترجمة السريانية أيضاً والأصول اليونانية فقد تعلم على مناطق وفلاسفة يجيدون اللغتين، وكان أقرب عهداً بعصر الترجمة أيضاً، ومن ثم فإنه من المستبعد أن يكون الفارابى وقف على المشكلة من خلال الكتابات المنطقية التى حصل عليها.

وفي مقابل هذا فإن ابن رشد قدم تلخيصا لمنطق أرسطو، ولم يقدم منطق أرسطو كما هو في الترجمة العربية^(٢٨) أضف إلى هذا أنه لم يتناهى إلينا أن ابن رشد كان يعلم اللغة اليونانية أو اللغة السريانية. ومن ثم فإنه اعتمد على الترجمة العربية وحدها، وليس من المحتمل أن تكون هناك مدخلات على نص الترجمة العربية من شروحات وتعليقات وهوامش توافرت لابن رشد ولم يشر إليها، والترجمة العربية التي نشرها عبد الرحمن بدوي بين أيدينا. فمن أين إذن جاءت هذه الإشارة لابن رشد؟ وما هي مساراتها؟ لم يقدم لنا بدوي الوجه الآخر للمشكلة، وإنما جاءت الإشارة إليها من خلال ما دونه المنطقي البولندي «يان لوكاشيفتش» في كتابه نظرية القياس الأرسطية.

يذكر لوكاشيفتش^(٢٩) أثناء تناوله لمشكلة الشكل الرابع أضواء جديدة على الجوانب التاريخية المتعلقة بنسبة الشكل الرابع إلى جالينوس، فهو يلاحظ أن الكتابات المختلفة في المنطق تكاد تحتوى على ملاحظة مؤداها أن مبتكر الشكل الرابع هو جالينوس. وجالينوس طبيب وفيلسوف يوناني عاش في روما في القرن الثاني الميلادي. ومصدر هذه الملاحظة مطعون فيه. فنحن لا نجد لها فيما وصل إلينا من مؤلفات جالينوس أو مؤلفات الشراح اليونانيين (بما في ذلك فيلوبونوس) وفي رأى برافتل أن هذه الملاحظة انتقلت إلى منطقة العصر الوسيط من ابن رشد، إذ قال إن الشكل الرابع ذكره جالينوس. ولنا أن نضيف إلى هذه المعلومات الغامضة قطعتين يونانيتين متأخرتين عثر عليهما في القرن التاسع عشر، وهما أيضا على قدر كثير من الغموض. نشر منياس إحدى هاتين القطعتين سنة ١٨٨٤ في تصدير الطبعة التي أعدها لكتاب جالينوس (المدخل إلى الجدل) وأعاد طبعتها كالبفلايش سنة ١٨٩٦. وهذه القطعة التي نجهل مؤلفها تثبتنا بأن الأضراب التي أضافها ثاوفرسطوس وأوديموس للشكل الأول قد حولها بعض العلماء المتأخرين إلى شكل رابع جديد، وتنسب إلى جالينوس الأسبقية في هذا المنحنى. والقطعة الأخرى عثر عليها برانتل في كتاب منطقي منسوب إلى يوانس إينالوس (القرن الحادي عشر الميلادي) يقول هذا المؤلف متهمكا إن جالينوس عارض أرسطو بقوله بوجود شكل رابع، وقد كان يريد بذلك أن يظهر من البراعة ما لم يتوفر للشراح القدماء ولكنه

قصر كثيرا دونهم. ذلك هو كل ما وصل إلينا. ولما كانت هذه المصادر أساسا ضعيفا فقد شك أوبرفيج أن يكون في الأمر سوء فهم، وقال هينريش شولتس في كتابه (تاريخ المنطق) أن جالينوس ربما لم يكن هو صاحب الشكل الرابع.

إنه وفقا لرأى لوكاشيفتش يمكن أن نستخلص مجموعة من النتائج المهمة والتي منها: أولا : أن لوكاشيفتش يشك أصلا في كون جالينوس هو صاحب الشكل الرابع أو واضعه لسببين هما : السبب الأول ، أن هذه المسألة لا توجد في مؤلفات جالينوس أصلا، والسبب الثاني أن مؤلفات وكتابات الشراح اليونانيين لم تشر إلى المشكلة.

ثانيا : أن ابن رشد هو مصدر القول بنسبة الشكل الرابع إلى جالينوس وفق رأى برانتل.

ثالثا : أن منياس نشر عام ١٨٨٤ كتاب (المدخل إلى الجدل) وهو أحد كتابات جالينوس، وأعيد طبع هذا الكتاب مرة أخرى عام ١٨٩٦. وتضمنت هذه النشرة بعض القطع اليونانية المتأخرة، وهي قطع غامضة، عثر عليها في القرن التاسع عشر، ونشرت ضمن تصدير منياس لكتاب جالينوس المشار إليه.

رابعا : تشير إحدى القطع إلى أن الضروب التي أضافها ثاوفرأسطس وأوديموس للشكل الأول قد حولها بعض العلماء المتأخرين إلى شكل رابع جديد منسوبة إلى جالينوس.

خامسا : أن برانتل عثر على قطعة أخرى جديدة في كتاب منطقي منسوب إلى يوانس إينالوس (القرن الحادي عشر الميلادي) وفيها يقول مؤلفها متهكما إن جالينوس عارض أرسطو بقوله بوجود شكل رابع، وغرضه في هذا أن يظهر من البراعة ما لم يتوافر للشراح القدماء.

سادسا : أن المسألة على هذا النحو شكلت أساسا للشك في مسألة نسبة الشكل الرابع لجالينوس من حيث المبدأ وفقا لرأى أوبرفيج وهنرش شولتس.

إن هذا المستوى من تحليل المضمون يكشف أمامنا مسألتين: الأولى تاريخية والثانية منطقية، أما المسألة التاريخية فتتمثل في نسبة الشكل الرابع إلى جالينوس وفق رأى ابن رشد، وهذه المسألة يذكرها بدوى ولكن على سبيل الحذر مؤكدا أنه

«وإذا كان صحيحاً ما يقوله ابن رشد من أن «جالينوس هو أول من قال بوجود شكل رابع مستقل»^(٤٠) ويبدو من نص كلام بدوى أنه يشك أصلاً في صحة نسبة الشكل الرابع تاريخياً إلى جالينوس، وفقاً لدوافع سيكولوجية لم يكشف عنها، وهو ما تكشف عنه عبارته «وإذا كان صحيحاً ما يقوله ابن رشد». إن بدوى يشك - إذن - فيما يقوله ابن رشد ولكنه لم يرفضه، ولم يعلن قبوله صراحة، وإنما من باب الحذر. على حين أن لو كاشيفتش يؤكد صراحة من خلال تحليله للقطع المنطقية التي تم العثور عليها أن المسألة كانت موضع «شك أوبرفيج» وأن هينريش شولتس في كتابه (تاريخ المنطق) ذهب إلى أن جالينوس «ربما لم يكن هو صاحب الشكل الرابع». المسألة التاريخية - إذن - تقود إلى ضرورة البحث عن الشخص الذي وضع الشكل الرابع ونسبه إلى جالينوس. وهذا المستوى من البحث والتحليل لم يكن موضع نظر بدوى أصلاً، فضلاً عن أنه لم يشكل عنده نقطة نقد لرأى ابن رشد الذي ذاع في الأوساط المنطقية، وهذه النقطة، على ما نرى، كان من الواجب أن تخضع للتحليل فيما كتبه بدوى، خاصة وأنه نشر وحقق منطق أرسطو من ترجمته العربية القديمة، كما نشر أيضاً بعض كتابات ابن رشد مثل تلخيص كتاب (الخطابة)، و(الحس والمحسوس).

وأما المسألة الثانية التي تظهر من التحليل فهي مسألة منطقية بحتة، وكل ما يذكره بدوى حول هذه المسألة خلاصة رأى مأخوذة من كتاب رابيه Rabier عن المنطق تشير إلى أن زبرله Zabarella وجوبلو Goblolt إذ اعتمد زبرله على إسقاط الشكل الرابع بناء على «تحليله للقياس على أساس أنه يقوم على (مقالة الكل واللا شيء)^(٤١) أما رأى جوبلو فيؤكد فيه من الناحية المنطقية أنه «أما في الشكل الرابع فإن الأصغر هو الذي سيكون مثبتاً للأوسط أو منفيًا عنه. فإذا كان من الممكن استنتاج شيء من مثل هذه المقدمات، فإن ذلك لا يكون إلا بشرط أن تكون الصغرى، والأوسط موضوعها، مساوية لقضية الأصغر موضوعها تستخرج منها بواسطة العكس المستوى. وهذه الأخيرة هي الصغرى حقاً^(٤٢).

إننا إذا تساءلنا عن رأى بدوى فى هذا الصدد لوجدنا أنه التزم الصمت ولم يقدم لنا أية تحليلات منطقية للشكل الرابع ومشكلته، وما تمثله هذه المشكلة بالنسبة للاستنتاج المنطقى ووضع الحدود الثلاثة فى ضوء نظرية القياس، بل اكتفى بدوى بذكر نصوص مأخوذة من رابيه، وكأن المسألة لم تشغل باله أصلا رغم أهميتها للبحث المنطقى، فهل لم يجد بدوى أهمية لتحليل وبحث المسألة على المستوى المنطقى؟ وفى مقابل هذا نجد لوكاشيفتش يقدم لنا بعض النصوص المهمة التى تفسر المكانة المنطقية للشكل الرابع وتنقل المشكلة من المستوى التاريخى إلى المستوى المنطقى. وفى إطار هذا التحول يبدو من المناسب أن نكتشف كيف تشكل مسألة الشكل الرابع مشكلة منطقية فى إطار تحليلات لوكاشيفتش الذى يقول : «طلعت منذ خمسين عاما حاشية يونانية توضح لنا المسألة برمتها على نحو لم يكن متوقعا على الإطلاق. ويبدو أن هذه الحاشية لا تزال مجهولة رغم طبعها. وكان ماكسيميليان واليس، وهو أحد الذين حققوا فى برلين الشروح اليونانية على أرسطو (قد نشر سنة ١٨٩٩ القطع المتبقية من شرح أمونيوس على التحليلات الأولى) فضمن التصدير حاشية مجهولة المؤلف توجد فى نفس المخطوط الذى حفظت فيه قطع أمونيوس، وعنوان الحاشية(فى كل أنواع القياس)، ومطلعها كما يلى : «القياس ثلاثة أنواع: الحملى والشرطى والقياس. والحملى نوعان : البسيط والمركب. والقياس البسيط ثلاثة أنواع : الشكل الأول، والثانى ، والثالث، والقياس المركب أربعة أنواع : الشكل الأول ، والثانى، والثالث، والرابع. فقد قال أرسطو إنه لا يوجد سوى ثلاثة أشكال، لأنه ينظر فى الأقيسة البسيطة المؤلفة من ثلاثة حدود، ولكن جالينوس يقول فى كتاب (البرهان) إن القياس له أربعة أشكال لأنه ينظر فى الأقيسة المركبة المؤلفة من أربعة حدود، وكان قد وجد كثيرا من هذه الأقيسة فى محاورات أفلاطون.

ثم يمدنا صاحب هذه الحاشية المجهول ببعض الشروح تبين لنا كيف تأدى جالينوس إلى هذه الأشكال الأربعة. فالأقيسة المؤلفة من أربعة حدود يمكن أن

تنشأ من اجتماع الأشكال الثلاثة للأقيسة البسيطة على تسع أنحاء مختلفة: الأول مع الأول، الأول مع الثاني، الأول مع الثالث، الثاني مع الثاني، الثاني مع الأول، الثاني مع الثالث، الثالث مع الثالث، الثالث مع الأول، الثالث مع الثاني، أما اجتماع الثاني مع الثاني والثالث مع الثالث فلا ينتجان قياساً أصلاً، وينتج عن اجتماع الثاني مع الأول نفس الشكل الناتج عن اجتماع الأول مع الثاني وكذلك الأمر في اجتماع الثالث مع الأول، والأول مع الثالث، وفي اجتماع الثالث مع الثاني والثاني مع الثالث فنحصل إذن على أربعة أشكال فقط هي: الأول مع الأول، الأول مع الثاني، الأول مع الثالث، والثاني مع الثالث. وفي الحاشية أمثلة، منها ثلاثة مأخوذة من محاورات أفلاطون، واثنان من محاوره القبياس وواحد من الجمهورية... وربما تأدى جالينوس على ذلك النحو إلى أشكاله الأربعة.

إن الحاشية التي نشرها وليس تفسر كل المسائل التاريخية المتصلة باكتشاف جالينوس المزعوم للشكل الرابع. لقد قسم جالينوس الأقيسة إلى أربعة أشكال، ولكنها كانت أقيسة مركبة تحتوى على أربعة حدود، ولم تكن هي الأقيسة الأرسطية البسيطة، أما الشكل الرابع من الأقيسة الأرسطية فقد ابتكرها شخص آخر، ويحتمل أن يكون ذلك قد حدث في وقت متأخر، وربما لم يكن حدوثه قبل القرن السادس الميلادي، ولاشك في أن ذلك العالم المجهول قد نما إلى علمه شيء عن أشكال جالينوس الأربعة، ولكنه إما لم يفهمها أو لم يطلع على نص جالينوس. ولأنه كان يعارض أرسطو والمدرسة المشائية كلها، فقد سارع بانتهاء الفرصة لدعم رأيه بقول عالم ذائع الصيت «(٤٣).

ما الذى يمكن أن تنتهى إليه إذن من تحليل نص لوكاشيفتش؟

هناك مجموعة من النتائج يمكن تقريرها في هذا الجانب ومنها :

أولاً : أن لوكاشيفتش يبدي شكوكه القاطعة حول الرأى القائل بأن جالينوس صاحب الشكل الرابع من أشكال القياس ويشير إلى أن هذا الرأى انتقل خطأً بمناطقه العصر الوسيط والمدرسين بصفة عامة، عن طريق ابن رشد.

ثانيا : إنه يفند الآراء التي حاولت تبرير هذا الشكل بجالينوس والرأى أن هذه الآراء ليست صحيحة.

ثالثا: أن ثمة اكتشافا أصيلا حول الشكل الرابع من أشكال القياس يثبتته من خلال حاشية ضمنها ماكسيميليان واليس لمؤلف مجهول، وذلك عند تحقيقه للشرح الأرسطية. ومن بين ما تثبته هذه الحاشية أن الشكل الرابع من وضع شخص آخر غير جالينوس ولكنه إما أنه لم يفهم نصوص جالينوس، أو لم يطلع عليها أصلا، وقد يكون أراد لرأيه الانتشار حين نسب هذا الشكل إلى جالينوس على اعتبار أنه من كبار المناطق بعد أرسطو . رابعا : ويترتب على النقطة السابقة أن ابن رشد حتى فى نسبته هذا الشكل إلى جالينوس لم يفرق بين الأقيسة المحلية الأرسطية والأقيسة المركبة إذ الأولى تتألف من ثلاثة حدود على حين أن الثانية تتألف من أربعة حدود. فكيف غابت هذه النقطة المنطقية عن ابن رشد الذى وصف بأنه أكبر شراح أرسطو فى العصور الوسطى؟.

إن ما يمكن أن نخلص إليه فى هذا الصدد أن الشكل الرابع من أشكال القياس الحملى ليس من وضع جالينوس، ولكنه أيضا ليس من وضع مؤلف مجهول، إذ إن نصوص أرسطو الواردة فى التحليلات الأولى تثبت - أصلا - معرفته بالشكل الرابع من أشكال القياس وهذا ما يكشف عنه لوكاشيفتش أيضا فى تحليلاته لمعرفة أرسطو بالشكل الرابع وضروبه المختلفة، إلا أن لوكاشيفتش يأخذ على أرسطو قوله: «إن كل قياس لابد من أن يكون فى واحد من هذه الأشكال الثلاثة، ذلك لأن أرسطو ذاته كشف عن وجه رابع ممكن حين أخذ يرد بعض ضروب من الشكل الرابع - الذى لم يتحدث عنه كشكل مستقل - إلى ضروب من الشكل الأول. يقول لوكاشيفتش : «وأرسطو يعلم أنه بالإضافة إلى الأضرب الأربعة عشر من الشكل الأول والثانى والثالث، وهى الأضرب التى أثبتها بطريقة منهجية فى الفصول المتقدمة من (التحليلات الأولى) توجد أقيسة أخرى صادقة. وهو يورد اثنين من هذه الأقيسة فى نهاية عرضه المنهجى ذاك. ويقول من الواضح أن القياس إذا لم

ينتج في شكل من الأشكال فإذا كان الحدان موجبين معا أو سالبين معا فلا يلزم بالضرورة شيء أصلا، وتعنى إذا كان أحدهما موجبا والآخر سالبا وكان السالب كليا، فيلزم دائما قياس يصل الحد الأصغر بالأكبر، مثال ذلك إذا كان (أ) ينتمى إلى كل أو بعض (ب) ، وكان (ب) ينتمى إلى لا(ج)، لأن المقدمتين إذا انعكستا فبالضرورة (ج) لا ينتمى إلى بعض (أ)^(٤٤) تبدو هنا - إذن - حقيقة الوجه المنطقي للشكل الرابع وهو ما لم يكن موضع تحليل في كتابات بدوى.

وينتج مما تقدم أن أرسطو يعلم ويقبل كل أضرب الشكل الرابع، ولا صحة للآراء التي ترى أنه رفض هذه الضروب، لأن رفضها خطأ منطقيا، لا تمكن نسبته إلى أرسطو. وتبقى فقط مشكلة: لماذا أهمل أرسطو ضروب الشكل الرابع في تناوله للأقيسة الحملية وضروبها المختلفة؟ المسألة معلقة وتحتاج إلى مزيد من الأبحاث المنطقية التي يمكن أن تتجاوز أبحاث لوكاشيفتش، وتتجه بتحليلات أرسطو ذاتها لتكشف عن المسكوت عنه منطقيا لدى أرسطو.

الهوامش :

- (١) جميل صليبا «الفكر الفلسفي في الثقافة العربية المعاصرة» تأملات معاصرة، بيت الحكمة، كندا، سبتمبر ١٩٨٥، ص ٢٢.
- (٢) ربما كان من المناسب أن نشير إلى ما ذهب إليه الدكتور أحمد صبحي في بحثه عن «اتجاهات الفلسفة الإسلامية في الوطن العربي (١٩٦٠ - ١٩٨٠)» الذي قدمه إلى المؤتمر الفلسفي العربي الأول الذي عقد في رحاب الجامعة الأردنية (١٩٨٢) حيث وصف بدقة إسهامات الدكتور عبد الرحمن بدوي في ميدان الفلسفة الإسلامية من تحقيق وترجمة ودراسة، وهو إسهام يبين إلى أي حد لعب بدوي دورا بارزا في هذا المجال.
- (٣) عبد الرحمن بدوي (المنطق الصوري والرياضي)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٨، الطبعة الثالثة، ص ٩. كتب على غلاف الكتاب من الداخل أن الطبعة الأولى له صدرت في عام ١٩٦٢، والطبعة الثانية صدرت في عام ١٩٦٣. وفي التمهيد الذي جاء بعد صفحة التعريف والتصنيف مباشرة صدر التمهيد بتاريخ ١٩٤٢. لا ندري على وجه الدقة متى صدرت الطبعة الأولى!
- (٤) المرجع السابق، ص ١١.
- (٥) المرجع السابق.
- (٦) المرجع السابق.
- (٧) المرجع السابق.
- (٨) المرجع السابق، ص ١٢.
- (٩) المرجع السابق، ص ١٣.
- (١٠) المرجع السابق، ص ١٠.
- (١١) أراد بدوي أن يجمع بين جانبي المنطق الصوري والمنطق الرياضي معا في مؤلف واحد، ربما على اعتبار أن المنطق الرياضي هو منطق صوري متطور وهو ما يبدو من عنوانه «المنطق الصوري والرياضي»
- (١٢) عبد الرحمن بدوي (مدخل جديد إلى الفلسفة) ط٢، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٩، ص ٤٣.
- (١٣) منذ بداية الثلث الثاني من القرن العشرين كشف كارل بوبر في عام ١٩٣٥ في كتابه «منطق الكشف العلمي» الذي صدر في طبعته الأولى باللغة الألمانية، أن العلم يعتمد على المنهج الفرضي الاستنباطي، وأن ما يطلق عليه استقراء عرضه لكثير من النقد، وأن النسق العلمي كما تكشف عنه

أعمال العلمي إنما هو نسق استنباطي.

راجع في ذلك: كارل بوبر، (منطق الكشف العلمي)، ترجمة ماهر عبد القادر محمد، بيروت - دار النهضة

العربية ١٩٨٥ وطبعة دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨١، المقدمة.

(١٤) عبد الرحمن بدوي، (مدخل جديد إلى الفلسفة) ص ٤٤.

(١٥) المرجع السابق، ص ٤١.

(١٦) المرجع السابق، ص ٤٣.

(١٧) عبد الرحمن بدوي، (مناهج البحث العلمي)، ط ٣، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٧، ص ١٧٠.

(١٨) المرجع السابق، ص ١٨١ - ١٨٢.

(١٩) المرجع السابق، ص ١٨٢.

(٢٠) عبد الرحمن بدوي، (مدخل جديد إلى الفلسفة) ص ١٨.

(٢١) المرجع السابق، ص ٢٢.

(٢٢) المرجع السابق، ص ٢٣.

(٢٣) المرجع السابق، ص ٢٢.

(٢٤) المرجع السابق، ص ٢٣.

(٢٥) عبد الرحمن بدوي، (المنطق الصوري والرياضي)، ص ٢٠٠.

(٢٦) المرجع السابق، ص ١٨٢.

(٢٧) المرجع السابق، ص ٢٠٣.

(٢٨) علي سامي النشار، (المنطق الصوري منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة)، دار المعارف، مصر،

الطبعة الخامسة، ١٩٧١، ص ٤٥١.

(٢٩) عبد الرحمن بدوي، المنطق الصوري والرياضي، ص ٢٠١.

(٣٠) علي سامي النشار، المنطق الصوري ص ٤٤٠.

(٣١) عبد الرحمن بدوي، المنطق الصوري والرياضي ص ٢٠١.

وأيضاً علي سامي النشار المنطق الصوري ص ٤٤٠.

(٣٢) عبد الرحمن بدوي المنطق الصوري والرياضي ص ٢٠٠.

(٣٣) علي سامي النشار المنطق الصوري ص ٤٤٠.

(٣٤) عبد الرحمن بدوي، المنطق الصوري ص ٢٠٢.

- (٢٥) على سامى النشار المنطق الورى ص ٤٤٠ وما بعدها
- (٢٦) عبد الرحمن بدوى، المنطق الورى والرياضى ص ٢٠١
- (٢٧) راجع نشرة عبد الرحمن بدوى لمنطق أرسطو ٢ أجزاء.
- (٢٨) يان لوكاشيفتش نظرية القياس الأرسطية ترجمة عبد الحميد صبره، منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٦١، ص ٥٥ وما بعدها.
- (٢٩) عبد الرحمن بدوى، المنطق الصورى والرياضى، ص ٢٠١
- (٤٠) عبد الرحمن بدوى، المنطق الصورى والرياضى، ص ٢٠١
- (٤١) المرجع السابق، ص ٢٠٣.
- (٤٢) لوكاشيفتش، المرجع السابق
- (٤٣) المرجع السابق، ص ٤١ والإشارة هنا إلى نص أرسطو فى التحليلات الأولى، المقالة الأولى، الفصل ٧، ص ١٢٩ أ، س ١٩ ...

obeikandi.com

المثالية الألمانية

كما يراها الأستاذ الدكتور بدوى

د. سعد عبد العزيز حباتر

جامعة عين شمس

obeikandi.com

فى غزارة إنتاجه، وتنوع مؤلفاته ، وعمق أبحاثه، ودقة تحليلاته، ووضوح بصماته، وأصالة آرائه، ما يجعل منه علامة مميزة فى الثقافة العربية، وواحدا من أكبر من أقاموا بنيانها. ولا غرو فى ذلك، فقد كرس أستاذنا حياته كلها للعلم والفلسفة، واتخذ من ذلك رسالة روحية له، فجاب أفاق الفكر شرقه وغربه، قديمه وحديثه، واقتحم كل مجالاته، وتجول فى كل ميادينه.

وقد ساعده على ذلك نبوغ مبكر يندر أن يتحقق لفرد ما، فكتب عام ١٩٣٩م وهو فى حوالى الثانية والعشرين من عمره كتابه «نيتشه»، وفى عام ١٩٤٠م، وباللغة الفرنسية، رسالته «مشكلة الموت فى الفلسفة الوجودية»، وفى عام ١٩٤١ كتابه «اشبنجلر» ١٩٤٢م، و «شوبنهاور» ١٩٤٣م، و «أرسطو».. إلخ.

وهكذا انهمك هذا المفكر العملاق، والفيلسوف الكبير فى التأليف والترجمة والتحقيق فى مختلف فروع الفلسفة والأدب، بل والمسرح أيضا، حيث قام بالكثير من روائع الترجمات فى هذا المجال، وإن ظلت الفلسفة عنده الأساس الذى ينطلق منه إلى شتى ألوان المعارف الأخرى.

هذا فضلا عن إسهاماته فى التكوين العلمى لكثير من تلاميذه ممن يلعبون الآن دورا بارزا فى ثقافة بلادهم، فى مقدمتهم الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا والكاتب الكبير أنيس منصور، بل ومحمود رجب السيد، وسعد عبد العزيز جباتر، وسامى نصر لطف، وأحمد عبد الرحمن إبراهيم، وغيرهم كثيرون.

إلا أن كل مفكر كبير يحوى فكره جوانب عديدة قد تكون متعارضة فيما بينها، وهذا هو بالفعل ما حدث مع أستاذنا الذى أولى اهتماما ملحوظا - فيما تشهد مؤلفاته - لفلسفتين بينهما خلاف كبير هما الفلسفة الوجودية من ناحية، والفلسفة المثالية من ناحية أخرى.

ولعل مرد هذا الاهتمام عنده بهاتين الفلسفتين المتباينتين، - كما يذكر هو نفسه ص ١٥٤ من كتابه «الزمان الوجودى» - هو أن الفكر الحديث - كما قال شوبنهاور- صراع بين الذات والموضوع من أجل تحرر الأولى من الثانى، هو صراع بلغ أوجه فى المثالية الألمانية، وفى الوجودية أيضا وإن لم يتحقق توكيد الذات بمعنى الذات

الفردية في كلتا الفلسفتين.

فالمثالية الألمانية قد استبدلت هذه الذات الفردية بذات كلية هي الأنا المطلق أو الروح المطلقة، كما هو الحال عند هيغل، كذلك حال دون تحقيق ذلك في الوجودية إقرار الوجوديين بنزعات غير وجودية، كالنزعة الدينية التي سادت تفكير كيركيجور مما جعله يربط فكرة الذات المفردة بفكرة المتوحد والمتآله.

كذلك فإن فيلسوفاً مثل نيتشه قد نشد الذات المفردة في الإنسان الأعلى، أو السوبر مان الذى يعلو فوق بقية الذوات الأخرى، ومن ثم كان اهتمامه بما يجب أن تفعله الذات لتبلغ كمالها، وتحقق هذا السوبرمان فى ذاتها دون أن يقدم نظرة فى وجود الذات المفردة، من حيث طبيعتها فى الوجود، كما أن واحداً من هذين الفيلسوفين لم يضع مذهباً محدداً على أساس الذات المفردة، وإن قدم كيركيجور بعض الملاحظات المفيدة فى هذه المسألة.

ومرة أخرى يتردد الربط بين المثالية والنزعة الإنسانية، ففى مقدمة كتاب «المثالية الألمانية» يبين مفكرنا الكبير حاجة الإنسان، فى هذا الزمن الذى طغت فيه القيم المادية على القيم العقلية، إلى الفلسفة المثالية، والمثالية الألمانية منها بخاصة ممثلة فى أقطابها الكبار الثلاثة نيتشه وهيغل وشلنج، فهى التى تجعله إنساناً يتميز عن سائر الكائنات بالفكر.

والمثالية مذهب فى نظرية المعرفة وفى نظرية الوجود، ومثالية نظرية المعرفة بدأها فى ألمانيا، فولف (Wolff 1679 - 1754) وذلك بقوله «إن المثاليين ينكرون وجود الأجسام والألم وجوداً حقيقياً».

وأما المثالية، فى نظرية الوجود، فإن أول من أقامها مذهباً كاملاً هو فشته J0- hann Gottlieb Fichte (1762 - 1814)، وهى تذهب إلى أن مبدأ الوجود واحد، وهذا الواحد هو الأنا أو العقل وليس خارجه شىء، ثم جاء فى إثره هيغل وشلنج.

وقد تأثر فشته تأثراً كبيراً بفلسفة كانط I. Kant حتى أنه يقول عن فلسفته : «إنها ليست إلا مجرد عرض واضح صريح لحقيقة مذهب كانط». و الحقيقة أن الاختلاف الذى يبدو بين الفلسفتين ليس جوهرياً فليس ثمة تعارض بين منهجهما .

ويمثل مذهب العلم جوهر فلسفة فشته، وهو مذهب يتلخص فى أنه إذا كان على الفلسفة أن تصبح علما يقينيا، فإنه ينبغى عليها أن تحل كل ألوان التناقض والتعارض بين المذاهب الفلسفية. وإذا كانت الفلسفة النقدية قد حلت التعارض بين المذاهب الدوجماتيقية، فإن التعارض بين المذهب النقدى والمذهب الدوجماتيقى مازال قائما بعد، ولا بد من البحث عن مذهب يستطيع أن يقدم له حلا.

ولكن كيف يمكن أن تكون الفلسفة علما؟ ذلك أن العلم يقتضى أن تؤلف جميع المبادئ أو القضايا كلا يقينيا، وأن يكون لجميع المبادئ نفس اليقين، ولهذا فإن يقين المبدأ الواحد يتوقف عليه يقين سائر المبادئ، وينبغى أن يكون هذا المبدأ واحدا، وأن تستمد باقى المبادئ يقينها منه. وهذا هو المبدأ الأساسى الذى لن يكون بدون ثمة علم، ولذا ينبغى معرفة كيف يقوم هذا المبدأ الأساسى، وكيف ينتقل إلى سائر المبادئ الأخرى؟

إلا أنه يمكن التعبير عن المبدأ الأساسى بأنه «محتوى العلم» وارتباط المبادئ ارتباطا ضروريا محكما يقينيا يستمد يقينه من يقين المبدأ الأساسى بأنه شكل العلم. وبذلك يصبح السؤال هو: كيف يمكن قيام المحتوى والشكل فى العلم؟ والجواب على ذلك أن العلم هو الذى يبين إمكان العلم، إنه مذهب العلم، وعلى ذلك فإن مذهب العلم عند فشته هو العلم الباحث فى إمكان العلم بوجه عام، وبدون مذهب العلم لن تقوم الفلسفة بوصفها علما واضحا بينا.

ووظيفة مذهب العلم تحديد المبادئ السابقة التى تقتضيها العلوم الجزئية، فعليه أن يبرهن على الشروط التى تعتمد عليها سائر العلوم من حيث الشكل والمحتوى، دون أن تكون هذه العلوم الجزئية قادرة على البرهنة عليه. ولمذهب العلم أيضا - بوصفه علما هو الآخر - مبدأ أساسى وشكل ومحتوى لا يستمدهما من غيره، كما هو الحال فى سائر العلوم بل يستمدهما من نفسه.

ولذلك لا يمكن البرهنة على مبدأ مذهب العلم بالاستناد إلى مبدأ آخر، بل هو مبدأ يقينى يستمد يقينه من نفسه، وبعبارة أخرى نقول إن شكله يتحدد بمحتواه، ومحتواه يتحدد بشكله... وبجانب هذا المبدأ الأساسى فى مذهب العلم يوجد مبدآن نسيبان، وفيهما يتحدد إما المحتوى أو الشكل عن طريق المبدأ الأساسى.

ويمكن صياغة هذه المبادئ على النحو التالي: الأول «الأنا يضع وجوده هو فقط ، والثاني «الأنا يضع اللا - أنا» ، والثالث «الأنا يضع فى الأنا أنا قابلا للقسمة فى مقابل الأنا القابل للقسمة».

وبهذه المبادئ الثلاثة يمكن استنباط مذهب العلم كله، وهو ينقسم إلى قسمين يكونان كلا واحدا: نظرى وعملى، فالمبدأ الثالث يقتضى التوحيد بين الأنا واللا - أنا عن طريق تحديد كل منهما للآخر بومعنى أن الأنا يحدد اللا - أنا ، هو أنه يفعل، أي أنه عملى. وبهذا يتأسس المذهب العملى للعلم. وهذا الأنا يضع نفسه متحددا باللا - أنا، ويضعها فى هذه الحالة كأنا نظرى، وبهذا يتأسس المذهب النظرى للعلم.

أما عن الفلسفة النظرية، أو القسم النظرى من مذهب العلم، فنقول: يمكننا أن نعبر عن المبادئ الثلاثة الأساسية، وهى الوضع والمقابلة والتوحيد بين المتقابلات أو التحديد بالمعانى التالية: موضوع، نقيض موضوع، مركب موضوع. وعلى ذلك يكون المنهج هو إيجاد وحل كل النقاوض القائمة فى الأنا وفى أفعاله الضرورية، ومن هذه المبادئ يمكن استنباط المقولات.

ومبدأ العلم النظرى هو: إن الأنا يضع نفسه محددا باللا - أنا وهذا يعنى أن الأنا فاعل لأنه يحدد نفسه، ومنفعل لأنه يتحدد باللا - أنا ، فهو فاعل ومنفعل فى وقت واحد. ومهمة العلم النظرى حل هذا التناقض، والتحديد المتبادل هو الذى يحل التناقض، أي أن الأنا واللا - أنا يحدد كلاهما الآخر على التبادل، فيكون الأنا فاعلا جزئيا ومنفعلًا جزئيا.

ولكن لما كان ما يوضع فى الأنا، يوضع بواسطته هو، ويفضل فاعليته، فإنه ينبغى على الأنا أن يضع الانفعال فى ذاته، على شرط أن يضع - فى الوقت نفسه - الفاعلية فى اللا - أنا. وهذه الفاعلية نفسها مشروطة بواسطة الانفعال فى الأنا، فالفاعلية والانفعال هنا مشروطان بعضهما ببعض، وهذا هو التناقض الذى يتطلب الحل.

ولحل هذا التناقض نلجأ إلى مبدأ التحديد، أى الرفع الجزئى الذى يقتضى منا أن نقول بفاعلية مستقلة فى الأنا واللا - أنا. ومثل هذه الفعالية ضرورية، وإلا لما

أمكن حل التناقض الذي اكتشفناه في التحديد المتبادل، وتقوم مهمة مذهب العلم في أن يستنبط من فكرة الفعل المتبادل والشروط الموجودة فيه طابع الفاعلية المستقلة، التي بدونها لا يمكن أن تقوم للتحديد المتبادل أية قائمة، وبالتالي لا تقوم للأنا أية قائمة بدون هذا النشاط. وبهذا نكون قد حددنا الشروط التي بها وحدها يقوم الأنا النظري بوضع ذاته بوصفه محددًا بواسطة اللا - أنا.

وعلى ذلك فقد بقي على مذهب العلم النظري أن ينمو من المبدأ الذي أنشأه حتى يصل إلى الشرط الذي تحته يقوم هذا المبدأ، أي أن ينمو من مبدئه إلى قدرته الأساسية، وعليه أن يبدأ من هذه القدرة الأساسية النظرية، وأن ينميتها إلى أن تتبدى لنا من جديد القدرة الأساسية النظرية لهذا العلم النظري. فإن حلت هذه المشكلة فإن مذهب العلم النظري يكون بذلك قد ختم دورته وحقق نفسه.

أما عن تطور العقل النظري، فإن له شرطين، أولاً: يجب أن تكون فاعلية الأنا بواسطة الأنا، وثانياً: يجب أن يعرف الأنا ما هو. وعندما يتأمل الأنا في إحساسه، لا يرى نفسه يفعل، أي أنه يفعل دون وعي منه. ولذا يبدو نتاج فاعليته له، وكأنه موضوع خارج عنه، أي يبدو أن الأنا قد ضاع بكل فاعليته في الموضوع.

وهذا النسيان للفاعلية، والضياع في الموضوع هو العيان. ويذهب فشته إلى أن العيان هو الأساس في التوافق بين امتثالاتنا، وبين الأشياء. وهكذا يمكن القول إن الشيء الخارجي من صنع الأنا وتصوره من صنع الأنا، وبذلك نكون قد وصلنا إلى المثالية التامة.

أما هيجل George Wilhelm Friedrich Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١) فإن مذهبه يقوم مستقلاً عن مذاهب كانط وفشته وشلنج، وإن اشترك معها في قليل من الصفات. هذا فضلاً عن تأثر هذا المذهب بالنزعة الطبيعية اليونانية، وبنزعة التنوير التي سادت في القرن الثامن عشر، واتصاله بكلتا الحركتين من خلال هؤلاء الثلاثة. كما تأثر هيجل بكانط في مسألتين أيضاً، الأولى: في التصوير المثالي للحقيقة الواقعية المباشرة، والثانية: في التنظيم العقلي للتجربة.

بل ويمكننا أيضاً أن نرى في مذهب هيجل، كما يتمثل في «دائرة المعارف الفلسفية»، بعض قسومات من مذهب كانط في المقولات وإن لم يأخذ به هيجل

صراحة.

إلا أن لكلمة (المثالية) معنى مختلفا عند كل من هؤلاء الثلاثة. فمثالية كانط مثالية نقدية تقوم على نقد العقل أو تحديد حدوده، وما الذى يستطيع هذا العقل أن يعرفه، وما الذى لا يستطيع أن يعرفه؟ وتنتهى هذه المثالية إلى أننا لا نعرف غير الظواهر الخاضعة لتركيبتنا العقلية. ولا نستطيع الوصول إلى حقيقة الأشياء، ومن هنا انتهت المثالية الكانطية إلى وضع الشيء فى ذاته فى مقابل علم الظواهر.

أما المثالية عند فشته، فإنها مثالية ذاتية، وهى ما يقابل الواقعية، فى الوقت الذى نجد فيه أن معنى المثالية عند هيجل فهم الواقع وجعله معقولا، وبالتالي الوصول إلى توحيد فيما بين الواقع والمعقول بالانتهاء إلى أن كل شيء معقول .

والمثالية الهيجلية تنادى بأن الفكرة هى المطلق. والفكرة هنا تشبه الصورة عند أفلاطون إلا أنها محايدة Immanente، بينما الصورة الأفلاطونية مفارقة. والمطلق هو الذات الكلية التى تنتظم كل شيء، وكل الأشياء ليست إلا تطورا ونموا دياكتيكيا عن الفكرة الأصلية.

والمذهب الهيجلى يتألف من ثلاثة معالم رئيسية هى: الفكرة ، والطبيعة، والروح، ومن ثم انقسم المذهب عنده إلى ثلاثة أقسام هى: المنطق ، وفلسفة الطبيعة، وفلسفة الروح أو العقل، وهى فى النهاية ترجع كلها إلى الفكرة.

أما المنطق فهو حجر الزاوية فى فلسفة هيجل، وهو وما بعد الطبيعة شيء واحد. والمنطق هو العلم الباحث فى ماهيات العقلية، وهو - فى نفس الوقت - علم الوجود، ومقولات الفكر هى بعينها مقولات الوجود.

والمنطق عنده يتضمن ثلاثة أقسام رئيسية هى: نظرية الوجود، ونظرية الماهية، ونظرية التصور.

أما الطبيعة عند هيجل فهى الفكرة عندما تخرج عن ذاتها لتتبدى فى صورة الأشياء والموضوعات فى إطار الزمان والمكان، إلا أن الفكرة لا تلبث أن تنطوى على نفسها، وتدخل فى ذاتها بعد هذا الخروج وتستبطن فى فكرة الإنسان، ولهذا فإن صيرورة الطبيعة فى صعود نحو الروح.

وعلى كل حال، فإن فلسفة الطبيعة عند هيجل هى أضعف ما فى مذهبه، وهذا

طبيعى إذ إن هيجل يضع الفكر فوق أى شىء فى الوجود، كما أن مذهبه يتسم بالواحدية: أى بوحدة الوجود.

وتأتى فى النهاية فلسفة الروح أو العقل، وهى التاج الذى يتوج مذهب هيجل كما هو طبيعى، لأن الفكرة تبلغ أوج نموها فى الروح، ففيها تصل إلى واقعها وواقعيتها العقلية. والفكرة المنطقية والطبيعية شرطان لتحقيق الروح التى تمر عنده بمراحل ثلاث هى: الروح الذاتية، والروح الموضوعية، والروح المطلقة.

وتكاد أن تكون فلسفة التاريخ أكثر أجزاء الفلسفة الهيجلية شيوعا بين الناس. والتاريخ الكلى الحقيقى - عنده - هو التاريخ الفلسفى الذى يهيمن على الوقائع، وينظر إليها من وجهة نظر غير مقيدة بزمان. ذلك أن العقل الذى يحكم العالم هو جوهر التاريخ وبالتالي فإن أحداث التاريخ تجرى وفقا لمقتضياته.

ومن هنا فإن التاريخ تطور ونمو لمنطق باطن لم تكن الشخصيات التاريخية غير أدوات لتحقيقه دون شعورها بذلك. فهذه الشخصيات - وهى بسبيل تحقيقها لمصالحها الخاصة - إنما تحقق أهداف التاريخ وخططه ومقاصده دون وعى منها، وهذا هو ما يسميه هيجل «خبت العقل الكلى المسيطر على التاريخ».

وقد عنى هيجل بالسياسة أيضا، إلا أن نظرياته فيها قد أدت إلى تفسيرات مختلفة، والواقع أن للسياسة عند هذا الفيلسوف وجهين متعارضين: وجه محافظ، ووجه ثورى تقدمى، الأمر الذى أدى إلى انقسام أتباعه إلى فريقين: فريق اليمين الهيجلى وهم الذين اتجهوا اتجاها محافظا، وفريق اليسار الهيجلى وهم الذين اتجهوا اتجاها ثوريا. وقد أثر هيجل تأثيرا كبيرا فى مفكرين سياسيين وجّهوا مذهبه وجهات تتعارض فيما بينها أشد التعارض، وما ذلك إلا لأنه مذهب حافل بالمتناقضات، وأنه جمع بين النقيضين كما يقضى بذلك منطق.

أما فريدريش قلهم شلنج F. W. Schelling (١٧٧٥ - ١٨٥٤)، فقد وضع أساس مذهب الفلسفى من خلال محاضراته فى جامعة بينا Jena، كما كان يفعل فشته هو الآخر.

ولقد سار شلنج فى البداية على أساس متابعة مذهب العلم عند فشته، ولكنه انتهى بمذهبه هو الخاص. ذلك أنه كان يرى فى مذهب العلم عند فشته المذهب

الكامل فى الفلسفة، ولا يرى فى فلسفة الطبيعة غير فرع من فروعها، لكنه ما لبث أن أدرك أن فلسفة الطبيعة ليست مجرد فرع من فروع مذهب العلم، بل هى فلسفة لها استقلالها وذاتيتها، فانتهى إلى أن المذهب الكامل فى الفلسفة هو الوحدة المطلقة بين الذاتى والموضوعى أو هويتها التامة.

وعلى ذلك فإن الفلسفة، بوصفها كلا، ستكون مذهب الهوية، وهى تتكون من جزأين أساسيين هما : فلسفة الطبيعة، ومذهب العلم أو المثالية المتعالية. والطبيعة عند شلنج هى العقل وهو غير شاعر بنفسه، والعقل هو الطبيعة وقد شعرت بنفسها. والطبيعة هى التنظيم المتقدم الذى غايته العليا الحرية، وهى نظام متطور علبه المحركة المولدة، وغايته الأخيرة، وثمرته الطبيعية، هى الروح (أو العقل).

ومهمة فلسفة الطبيعة، فى نظر شلنج، هى أن تستنبط من مبادئ إمكان الطبيعة، أى مجموع العالم المؤسس على التجربة، ونحن ندين للفلسفة بالسؤال عن إمكان الطبيعة والتجربة، أو بالأحرى إن الفلسفة نشأت مع هذا السؤال. فانفصال الإنسان عن العالم الخارجى، وبالتالي عن ذاته - وهو وسيلة من أجل الفعل إذ كلما قل تفكيره فى ذاته، كان أكثر فاعلية - هو بداية التفكير وبداية التفلسف ولهذا ينبغى ألا تكون ثمة هوة بينه وبين العالم، والاتصال بين كليهما وفعل كليهما فى الآخر ينبغى أن يكونا دائما ممكنين، فبهذا الشرط وحده يصبح الإنسان إنسانا.

والفلسفة تبدأ من هذا الفصل المبدئى ابتغاء أن توحد فيما بعد - بفضل الحرية - ما كان متحدا فى العقل الإنسانى أولا وبالضرورة، أى من أجل القضاء نهائيا على هذا الفصل. ولقد اعترف المفكرون من قديم الزمان بوجود عالم خارجى وخلو الأشياء من الروح، فإنهم لم يروا أية رابطة بين الأشياء والعقل. وكبار مفكرى اليونان لم يستطيعوا تجاوز هذا التعارض، فنرى تعارض المادة والروح عند أفلاطون، أما أول من أدرك أن الروح والمادة تؤلفان وحدة واحدة لا تنقسم فهو اسبينوزا.

فليس أمامنا إذن إلا أن نسلم بوجود المادة، ويأن وجودها يستلزم وجود قوى تؤثر بها فى الأشياء، فلا مادة دون قوى ولا قوى بغير مادة، وهذه القوى هى قوى الجذب والتنافر والمادة الغليظة، أى المادة بقدر ما نتصورها تملأ المكان، تؤلف

التربة الراسخة التي نقيم عليها بناء الطبيعة. فالمادة ستكون - إذن - شيئاً حقيقياً، وما هو حقيقي موضوع للإحساس، ولهذا لا بد من أن يكون في داخلنا شيء يدرك الإحساس.

وهكذا وجب علينا أن نعترف بوجود المادة، ومعها بقوى الجاذبية والتنافر، بل وأن نقر بما لا نهاية له من أنواع المادة التي تختلف فيما بينها كيفاً، وأن نقسم الحركات على النحو التالي:

١- الحركة الكمية، أى الثقل وهى موضوع الاستاتيكا.

٢- الحركة الكيفية، أى الحركة الكيماوية، وهى موضوع الكيمياء

٣- الحركة الميكانيكية، وهى موضوع الميكانيكا.

وبهذه الحركات الممكنة الثلاث تشيد نظرية الطبيعة كل مذهبها. وشلنج يناقش فلسفة هيوم وغيره من الفلاسفة الذين يدعون أن تسلسل الظواهر تسلسل ألى. وهو يريد أن يخلص من ذلك إلى تقرير وجود الغائية فى الطبيعة، وإلى أن هذه الغائية لا يمكن أن تنشأ إلا فى العقل. والطبيعة لا تتفق عرضاً وبالصدفة مع قوانين عقلنا، بل إنها تعبر عن قوانينه أى أن الفكرة الأساسية التى تقوم عليها فلسفة الطبيعة عند شلنج هى القول بوحدة الطبيعة والروح. وقد أخذ عن كانط فكرة الغائية، وعن ليبنتس فكرة التدرج فى الأشياء والتطور فى نظام العالم.

والتعارض الأساسى فى الطبيعة هو بين العضوى واللا عضوى، ويقتضى مبدأ وحدة الطبيعة رفع التقابل واستخلاص الطبيعة العضوية واللا عضوية من مبدأ واحد، ولهذا فإن شلنج يرفض المذهب الحيوى، أى النظرية القائلة بقوة الحياة ويفسر الحياة تفسيراً فيزيائياً.

ويمكن تقسيم فلسفة الطبيعة عند شلنج إلى مرحلتين رئيسيتين: الأولى تسبق مذهب الهوية، والثانية تقوم عليه، وكلتاهما فى جوهرها تقول بوحدة الوجود، الأولى بأسلوب علم الطبيعة، والثانية بأسلوب الحكمة الإلهية (الثيوصوفيا) ونقطة التحول بين كلتا المرحلتين تتمثل فى كتابه «عرض مذهبى فى الفلسفة» عام ١٨٠١.

وتقوم ماهية الطبيعة عند شلنج فى صفتين، أولاً: أنها منتجة أى أنها مبدأ خلاق، وثانياً: أنها متجلية يمكن إدراكها أى موضوع للعيان. ولا بد لها من كلتا

الصفيتين معا، ولكنها تلقى ما يعوقها عن مواصلة إنتاجها. ومن هنا ينبغي أن نقرر أن فى الطبيعة ميلا إيجابيا، وآخر سلبيًا، إنتاجا وعائقا عن الإنتاج. وعلى هذا فإن وحدة الطبيعة تتألف من قطبين متعارضين وهذه الثنائية، بوصفها شرطا للطبيعة كلها، هى مبدأ كل تفسير فيزيائى.

كذلك ينبغي ألا تستنفد الطبيعة نفسها فى إنتاج ما تنتج بل عليها أن تستمر، أى أنها تشبه إنتاجا أولا ينمو ويتطور فى سلسلة لا تنتهى من الإنتاج، وليست هى منتجة إلا من حيث هى تطور ونمو لا يتوقف وهى لا تترك إلا بوصفها مادة، والقوى التى منها تنشأ المادة وتسبقها قوى متعالية، والقوى التى تعمل فى المادة ديناميكية، والحياة كلها فى الطبيعة تفترض مقدما التفاعل المشترك لقوى متضادة. فبفضل التنازع المتبادل بين قوة الجذب وقوة الدفع يمكن أن توجد الحياة وأن تبقى لأنها عملية إيجاد وتحول مستمر .

ولهذا يحاول شلنج أن يقدم صورة ديناميكية للطبيعة يفسر فيها أحداثها على أساس التجاذب والتدافع والتقابل بين قوى ثنائية أصيلة فى الطبيعة المنتجة التى تسعى دائما إلى استعادة الوحدة. وشلنج يسمى الوحدة فى مقابل التقابل باسم «الهوية»، أما الوحدة الناشئة عن التقابل أو الاختلافات فيسميها باسم «السوية»، ونزوع الطبيعة إلى السوية أى الوحدة بين المتقابلات، هو الذى يرغمها على إيجاد توازن بين القوى، والاختلاف والنزوع إلى الهوية يوجدان معا، ويختلطان فى الزمان. ولقد ميز شلنج بين العلم وبين جماع التجربة، فموضوع العلم فى طريق الأول يعنى ٤٣٣٤٣٣ الصيرورة، ولكن موضوع جماع التجربة هو الوجود الراسخ التام، الطبيعة بوصفها ذاتا أى إنتاجا، والثانية تعنى الطبيعة بوصفها ناتجا أى موضوعا. ولما كانت الطبيعة هى الإنتاجية والناتج، قلنا إن الطبيعة «كل» هو علة نفسه، ومعلول نفسه، ولا يتوقف أبدا عن أن يكون فى هوية مع نفسه باستمرار على الرغم من ثنائيته التى تتجلى فى كل الظواهر.

ووجهة النظر التجريبية تقضى على هذه الهوية لأنها لا ترى فى الطبيعة غير معلولات، ولكن هذه الوجة من النظر يقضى عليها أيضا النظر الذى لا يرى فى

الطبيعة غير العلة، والسيرورة تتضمن فكرة التقدم، وإذا ينبغي أن ننظر إلى الطبيعة بوصفها إنتاجية لا متناهية على أنها متدرجة في تطور لا نهائي، وعلى أن سكونها أيضا تطور يتم بسرعة صغيرة جدا، والطبيعة إنتاجية محضة، ولذلك فليس فيها شيء معين لأن التعيين سلب.

ولكن لا نواتج دون تعيين، وإذن فلا بد أن تتضمن الطبيعة التعيين، أي السلبية ولكن هذه السلبية - منظورا إليها من وجهة نظر أعلى - تعود فتصبح إيجابية، ولكي يكون ثم ناتج، يجب أن يلتقى هذان الميلان وهما الإيجابي والسلبى. ولما كان هذا الميلان متساويين، فإن التقاءهما ينتج عنه تحطيم كل منهما للأخر، وسوف يساوى الناتج الأصل.

والعالم ينقسم إلى عالم عضوى وآخر غير عضوى، والعضوية قوة لأنها نشاط فعال، بينما اللا عضوية موات وانعدام للحركة والنشاط، وأعم مشكلة في (الفيزياء النظرية) هي رد تركيب العالم العضوى، والعالم غير العضوى إلى تعبير مشترك، والشرط الأول لتركيب العالم العضوى هو الحساسية أي القدرة على التهيج بالأفعال الواردة من الخارج، ثم القدرة العضوية على رد فعل، وهو الوسيط الذى يربط بين الحساسية والعالم الخارجى، وأخيرا التكاثر، أي أن الفاعلية العضوية تكرر الناتج أو تجعله يتكاثر. وهناك تناظر بين القوى العضوية واللا عضوية، فالمغناطيسية والكهرباء والتفاعل الكيميائى يناظرها فى مجال العضوية الحساسية والتهيج والتكاثر على التوالي.

والمغناطيسية بوجه عام هي الشرط فى الطول فى بناء المادة، أما الكهرباء فهي التى تضيف إلى المادة بعدا ثانيا، أى العرض، كما يحدد الثقل اللحظة الثالثة فى التركيب البنائى للمادة، وهو الذى يحدث الملء الفعلى للمكان أي البعد الثالث. ومن ظلمة الثقل وسنا الماهية المضيق، ينشأ مظهر الحياة الجميل، وبفضل اتحادهما يصبح الشيء حقيقيا واقعيا بمعنى الكلمة.

أما عن فلسفة الماهية عند شلنج فنقول: إذا كانت الطبيعة هي مجموع ما هو موضوعى فى معارفنا ، فإن الأنا أو العقل هو مجموع ما هو ذاتى فيها، وكلتا الفكرتين متعارضة مع الأخرى. وفى كل معرفة يتحد الموضوعى والذاتى على نحو

يجعل من غير الممكن أن نعطي لأحدهما الأولوية على الآخر، وأن نجعل منه نقطة ابتداء ابتغاء الوصول إلى الآخر.

والبدء بالموضوعي من أجل استنباط الذاتى هو مهمة فلسفة الطبيعة ، أما البدء بالذاتى من أجل استنباط الموضوعي منه فهو مهمة الفلسفة المتعالية، وهما متعارضان من حيث المبادئ والاتجاهات، ولكنهما مع ذلك يسعيان إلى التلاقى والاستكمال أى أن يكمل كل منهما الآخر.

ولما كانت الفلسفة المتعالية تعطي الأولوية للذاتى، فإنها تبدأ بالشك فى حقيقة ما هو موضوعي، والسبيل إلى إبعاد الموضوعي هو الشك المطلق فى الأحكام السابقة الشائعة بين الناس، وبالتالي الشك فى الحكم السابق الأساسى الذى يزعم أنه توجد أشياء خارجة عنا. وفى المعرفة المتعالية يخفى الموضوع - بما ما هو موضوع - أمام فعل المعرفة أو يهرب من الشعور ، وما هو غير موضوعي يصبح فيه شاعرا بنفسه وموضوعا، وعلى الجملة فإن الفلسفة المتعالية تتقوم من التموضع المستمر للذاتى.

والعيان العقلي هو الأداة التى تتم بها الفلسفة المتعالية، وبدون هذه الأداة للعيان العقلي لن تكون المعرفة المتعالية ممكنة. كما أنه بدون العيان الحسى لا تتيسر المعرفة المكانية أو الهندسية. وموضوع هذه الفلسفة ليس شيئا غير فعل العقل بحسب قوانين محددة. وهذا العقل لا يمكن أن يفهم إلا بالعيان الذاتى المباشر الباطن، وهذا بدوره لا يكون ممكنا إلا من خلال الفعل.

والفلسفة المتعالية تنقسم إلى : الفلسفة النظرية والفلسفة العملية، وفلسفة الفن التى توحد بينهما، إذ إن الهوية بين المثالى والواقعى تتجلى فى الفن.

والمشكلة الحقيقية فى الفلسفة النظرية هى تفسير «مثالية الإطارات» أى أنها من العقل نفسه. والوعى الذاتى الذى تبدأ منه هو فعل مطلق ومعه يوضع الأنا وكل ما يوضع من أجل الأنا. ولهذا فإن مهمة الفلسفة النظرية الأولى هى استنباط هذا الفعل المطلق، ولهذا كان لابد من تحليله إلى أفعال منفصلة تكون بدورها أعضاء متوسطة لذلك التركيب الواحد.

والفلسفة المتعالية تميز، فى تاريخ العقل النظرى، بين ثلاثة عصور الأول يمضى

من الإحساس الأصلي إلى العيان المنتج، والثاني من العيان المنتج إلى التأمل ،
والثالث من التأمل إلى فعل الإرادة الحرة المطلقة. والتأمل لا يضع موضوعات بل
تصورات ثم يقارن بين التصورات والعيانات (الموضوعات) فتنشأ الأحكام.

وفي هذا نرى شيئا تاما مع فشته في عرضه لمذهب العلم. ولهذا لا نجد تأثير
فشته في شلنج يتجلى في شيء كما يتجلى في هذا الباب. والفارق الأساسي بينهما
هذا هو في نظرتهما إلى فلسفة الطبيعة. فعند شلنج أن الفلسفة النظرية ينبغي أن
تتلاقى مع فلسفة الطبيعة، وهذا التلاقى هو أساس معرفة تلك الهوية التي أقام عليها
شلنج مذهبه كله.

والفارق بين المثالية المتعالية عند شلنج، ونظرية العلم عند فشته، هو: أولا: أن
المثالية المتعالية هي المثالية معروضة لا من حيث المبادئ التي تقوم عليها، بل من
حيث تطبيقاتها الممكنة، وثانيا: أن الفعالية اللامتناهية عند فشته هي الذاتية،
والفعالية المحددة هي الموضوعية، أما عند شلنج فالأمر بالعكس فالفعالية المحددة
هي الذاتية، والفعالية اللانهاية الموضوعية هي حقيقة بمعنى آخر مختلف تماما عن
المعنى الذي فهمه فشته، لهذا انتهت نظرية العلم عند فشته بالفلسفة العملية، وانتهت
مثالية شلنج بفلسفة في الفن، والفلسفة العملية عند شلنج هي في المقام الأول
فلسفة التاريخ، أما عند فشته فالفلسفة العملية هي الأخلاق ، فهي الفعل الحقيقي
المتمثل في الانتصار على مقاومة خارجية.

ذلك أن المهمة العليا للفلسفة العملية عند شلنج هي الوصول إلى تصور التاريخ
فهو تتأمل التطور التاريخي للحرية الإنسانية، وعليها أن تحدد معنى التاريخ.
فالحرية لا الضرورة هي التي تسود التاريخ، ولهذا يقول شلنج إن «الهوى هو رب
التاريخ إلا أن التاريخ - لكي يكون موضوعا للفلسفة - ولكي يمكن بالتالي إيجاد
فلسفة للتاريخ - فلا بد له أن يجمع بين القانونية والهوى، والتاريخ في تقدم متواصل
وهو يختلف عن الطبيعة في أنه ليس له مراحل ثابتة ولا يصل إلى هدف نهائي، بل
هو يمتد إلى غير نهاية» ويرى شلنج أن الدستور العالمي والاقتراب منه شيئا
فشيئا هو ما يميز التقدم في التاريخ.

إن موضوع التاريخ هو الحرية، ولا ضمان للحرية إلا بالقانون العام، وهنا نجد

الارتباط بين الحرية والضرورة الذى يكون المشكلة الكبرى فى الفلسفة المتعالية، ذلك أن الأفعال تقوم على أساس الاعتقاد فى قوة ضرورية فوق الحرية فتترابط على نحو لا تنحرف فيه عن الخطة العامة، ومن ثم يجرى كل شىء وفقاً للقانون العام. وهذا التركيب المطلق لكل الأفعال يسميه شلنج باسم «المطلق» ، وفى أعماق الأشياء لا تتضاد الحرية والضرورة، بل تتوحدان، وهذه الوحدة يسميها باسم «الهوية المطلقة» وهى الأساس فى كل تطور وفى كل تقابل بين الذاتى والموضوعى، ومن هنا يرى شلنج أن تاريخ تطور العالم والإنسانية خاصة هو كشف تدريجى للمطلق، ودليل مستمر على وجود الله. وهذا الكشف يتم تدريجياً ولا ينتهى أبداً.

أما عن فلسفة الفن، فإن شلنج يذهب إلى أن العمل الفنى يمثل الهوية بين الوعى والللاوعى، فالإبداع الفنى يقوم على تقابل بين الفعاليات . وهذا أمر يعترف به كل الفنانين الذين يقولون إنهم مدفوعون رغماً عنهم إلى خلق أعمالهم. ولما كان كل إبداع فنى يتولد من الشعور بتناقض لا حد له، فإن هذا الشعور يصحب تحقيق الفن، وينبغى فى نفس الوقت أن يكون شعوراً بالرضا ولهذا فإن التعبير الخارجى عن العمل الفنى هو تعبير عن الراحة، بينما هو يعبر عن التوتر الأقصى للألم أو السرور.

يقول شلنج فى محاضراته فى «بيينا» و«نور نسبورج» التى نشرت تحت عنوان «فلسفة الفن» إن الفن ليس فى ذاته غير تجريد خاو، ولا يمكن تحديده مستقلاً عن مادته ومظاهره وأنواعه المختلفة. والفن ليس عنصراً مجرداً يظل باقياً على حاله خلال الأشياء العرضية التى يتخذها فى الموسيقى أو الشعر، بل هو مبدأ حى يتحول، وفى تحولاته يمكن دراسة ماهيته، وشلنج لا يحفل بالفن المعاصر له، بل إنه يوجه كل اهتمامه إلى الفن القديم وأوائل العصر الحديث، كما أنه قصر اهتمامه على الشعر والفنون التشكيلية .

وينقسم مذهب شلنج فى الفن إلى ثلاثة أقسام رئيسية هى : فى ماهية الفن، وفى الأساطير، وفى الأنواع الفنية.

فإذا ما انتقلنا إلى مذهب شلنج الميتافيزيقى لرأينا أن الفكرة الأساسية فيه هى

الهوية المطلقة، وقد عرض لها في الكثير من كتبه وخاصة كتاب «عرض مذهبي في الفلسفة» حيث يقرر فيه أن الهوية المطلقة هي جوهر العقل وماهيته، وأن الفلسفة لايمكنها التخلص من المشاكل العويصة التي تتردى فيها إلا بالرجوع إلى مبدأ الهوية، ولكنه أضاف إلى هذا المبدأ - خشية القضاء على كل تفكيره الماضي - مبدأ السوية. وهذا الارتباط بين الهوية والسوية يلقي كثيرا من الضوء على روح مذهب شلنج.

إلا أن شلنج، رغما تأكيده لمبدأ الوحدة والمطلق، لم يقصد من ذلك أن يرفع الفارق بين الله والعالم بل إنه يؤكد أن بينهما تقابلا وانفصالا ونزاعا. وقد تناول شلنج الصلة بين الفلسفة والدين في بحث له بعنوان «الفلسفة والدين» عام ١٨٠٤ انتهى فيه إلى خلود النفس وإلى القول بالوحدة بين الفلسفة والدين على أساس النظرة العميقة في تصور العالم والحياة الإنسانية ، تلك النظرة القائمة على المعرفة الصحيحة لله، والمهمة الحقيقية للدين.

obeikandi.com

نتيشه / بدوى

ا.د / أحمد عبد الخليم عطية

(آداب القاهرة)

obeikandi.com

تتوزع الجهود الفلسفية للدكتور بدوى بين مجالات فلسفية متعددة، بين مبتكرات، ودراسات، وإسلاميات، وترجمات، ويمتزج فى أعماله التأليف بالترجمة والتحقيق. يتوقف البعض أمام المبتكرات التى يختلط فيها الإبداع الفلسفى بالأدبى ويظهر فى مقدمتها: الزمان الوجودى وهل يمكن قيام أخلاق وجودية؟.... وفى الأبحاث نجد دراسات فى الفلسفة الوجودية.... وفى الإسلاميات نجد الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى. وفى خلاصة الفكر الأوروبى قدم عدداً من الفلاسفة والدراسات: أولها وأهمها كتابه عن «نيتشه» الذى يعد - من وجهه نظرنا - أقرب إلى إبداعات بدوى لأسباب متعددة، ليس فقط لأنه أول كتاباته ولم يصدره باعتباره جزءاً من مهامه التدريسية بالجامعة، ولا لأنه أول دراسة فلسفية بالعربية عن نيتشه، المعروف جيداً فى ثقافتنا قبل نشر بدوى كتابه، بل ترشح أهمية كتاب بدوى عن نيتشه إلى سببين هامين.

الأول: سبب سياسى خالص، حيث مثل فكر نيتشه بالنسبة له الأساس النظرى لتوجهه السياسى، المتمثل فى انتمائه لحزب (مصر الفتاة) فى فترة مبكرة من حياته، بعد تخرجه مباشرة وعمله بالجامعة، حيث كان مسئول العلاقات الخارجية بالحزب، وتمثل كتاباته عن المشكلات السياسية والمذاهب السياسية: عن الفاشية والنازية، الأساس النظرى لسياسة مصر الفتاة.^(١)

الثانى: سبب ذاتى تماماً يتمثل فى ارتباط بدوى الوثيق بحياة وأفكار شخصية نتيشه الأرستقراطية المتحررة وثورته ورفضه للعادات والقيم القديمة ونظراته الثاقبة فى الحياة والكون التى تمثل سمواً نظرياً وثورة روحية ذات تأثير فى العقول يفوق سلطة الهيئة الاجتماعية والدول بمؤسساتها المختلفة مما أوجد نوعاً من التقارب، إن لم يكن من التطابق والتوحيد، بين الرائد العربى والمفكر الألمانى الذى أعلى من الإرادة والوجدان، وبدوى نفسه يعترف - فيما كتبه عن نفسه - بتأثير نيتشه القوى عليه. يقول عن نفسه: «فيلسوف مصرى ومؤرخ للفلسفة. فلسفته هى الفلسفة الوجودية فى الاتجاه الذى بدأه هيدجر.... وقد أحاط علماً بكل تاريخ الفلسفة.

وتعمق فى مذاهب الفلاسفة المختلفين، والألمان منهم بخاصة. لكن أقوى تأثير فى تطوره الفلسفى إنما يرجع إلى اثنين هما هيدجر ونييتشه»^(٢)

وقد ظهر تأثيره بهيدجر فى كتابه «الزمان الوجودى» ١٩٤٥ وهو تأثير يحتاج إلى تفصيل. إلا أن مهمتنا هنا هى دراسة أثر نييتشه فى بدوى. فالثورة والتمرد وزعزعة الأفكار السائدة وقلب القيم المتعارف عليها - التى تمثل دعوة نييتشه - وجدت لدى الفكر العربى. ومن هنا فالسؤال المحورى الذى نسعى لطرحة والإجابة عنه هو خصوصية نييتشه فى فكر بدوى وأهمية كتاب بدوى عن الفيلسوف الألمانى الذى أثر فى وعى جيل كامل من المثقفين العرب ممن وجدوا فى بدوى تجسيداً لأفكار نييتشه. أو بعبارة أخرى يمكن القول إن تأثير بدوى الكبير يرجع إلى حماسته فى الكتابة عن نييتشه ويمكن أن نستشهد ببعض الآراء فى هذا المجال: يقول محمود أمين العالم: «إن الدكتور بدوى كان يمثل ذات يوم دعوة للخلاص لطائفة من المثقفين أثناء الحرب العالمية الثانية. وكنت واحداً من السائرين فى طريقه. كنا نلتهم كلماته كأنها الخبز المقدس ونعانى أفكاره معاناة حادة جادة... وأذكر أننى ذهبت إلى الجامعة أول ما ذهبت محملاً بالنموذج الأسطورى الذى بشر به نييتشه (الإنسان الأعلى).. ولهذا كان عبد الرحمن بدوى أول تجسيد أمام عينى لهذا النموذج، كان تجسيداً لإرادة القوة، لأخلاق السادة، ولهذا الحبل المنصوب فوق الهاوية الذى يسير عليه الإنسان نحو الإنسان الأعلى»^(٣)

ويدلى الشاعر المبدع محمد عفيفى مطر بشهادة «من مقصورة المتفرجين» يقول «لم يكن يعلم هذا المراهق الريفى أن لحظة من لحظات الزلزال الروحى قد أُلقت بين يديه بكتاب قديم مهلهل سوف يعصف به ويفتح أمامه باب الفطام عن كل ما قرأ ووعى، ويرمى بين جوانحه بجمرة متوقدة يصدق عليها قول صاحبها «إحراق واحتراق... تلك كانت حياتى». كان الكتاب هو نييتشه لمؤلفه - وأستاذى فيما بعد - عبد الرحمن بدوى»^(٤) ونجد نفس التأثير الذى مارسه بدوى على عدد كبير من المثقفين فى شهادة د. ماهر شفيق عن تأثير بدوى عليه فى مرحلة مبكرة من حياته فى قوله: كان كل كتاب جديد، مولفاً أو مترجماً، يقرؤه المرء لبدوى كشفاً جديداً

وتجربة تهز من الأعماق... كان عبد الرحمن بدوي هو الذى قدم إلى نداءات نيتشه النارية «عيشوا فى خطر. ابنوا مدنكم قرب بركان فيزوف. أرسلوا سفنكم إلى بحار مجهولة»... «لهذا نظل - مع كل التحفظات، وهى تحفظات مهمة وأساسية - مدينين له إلى آخر لحظة فى حياتنا»^(٥)

وقبل أن نواصل حديثنا نشير إلى ملاحظة هامة بخصوص الشهادات السابقة والتأثير القوى الذى مارسه أفكار بدوي عن نيتشه، وهو تأثير تم فى مرحلة مبكرة فى حياة هؤلاء، وسرعان ما تحول كثير منهم عن هذا الاتجاه إلى دراسات أكثر تعمقاً أو إلى التفرغ التام للإبداع الشعرى أو إلى مواقف فلسفية مضادة تماماً لهذا الاتجاه الوجودى النيتشوى الذى دعا إليه بدوي.

إن تأثير نيتشه فى تزايد مستمر وهو تأثير لم يظهر فى حياة الفيلسوف بل ظهر قوياً بعد وفاته. تنبأ نيتشه بأنه ستنشأ - فى يوم من الأيام - كراسى جامعية خاصة من أجل دراسة كتابه (زرادشت)، وهى نبوءة تحققت ضد جميع التوقعات. وفى أوائل القرن العشرين كان زرادشت - من دون ريب - المؤلف الأشهر فى ألمانيا، وكانت شعبيته وعدد طبعاته فى ازدياد متصل. هكذا كتب ستيبان أرويف فى مقدمة كتابه «على دروب زرادشت» أفكار نيتشه - كما يرى - لم تمارس فحسب، ولا تزال، تأثيراً هائلاً فى الفكر البورجوازي النظرى بل تستخدم بصورة فعالة فى النضال الأيديولوجى من حيث هى نقيضة التصور التقدمى عن العالم المؤسس على المعرفة العلمية للقوانين الموضوعية لتطور الطبيعة والتاريخ والفكر البشرى.... ونظراً لأن النيتشوية ليست عقيدة رسمية، فقد احتفظت بشهرة الفلسفة النقدية المستقلة التى تسمو فوق غرور النزعات النظرية والأيديولوجية والسياسية»^(٦)

يستعرض أرويف فى الفصل الأول من كتابه: (الأسس النظرية للنيتشوية)، بينما تشكل الفصول الثلاثة التالية محاولة لتتبع تأثير نيتشه على الصعيدين التاريخى والفلسفى داخل بعض التيارات الفلسفية فى ألمانيا منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى أيامنا الحاضرة، حيث يتناول فى الفصل الثانى «من زرادشت إلى أسطورة القرن العشرين»: الفلسفة الأكاديمية للحياة عند دلتاي، ج سيمل وماكس شيلر،

والمصير والنفس والفكر لدى ازفلد شبنجلر ولودفيج كلاجيس، فلسفة نيتشه والفاشية: ألفريد باوملر، و ألفريد روزنبرج. ويعرض في فقرات الفصل الثالث «عودة زرادشت الجديدة» لكل من: فيبر، وكارل لوفيت، وأوجين فينك. بينما يخصص الفصل الرابع «دروب الوجودية التي لا تقود إلى أى مكان لكل من: كارل ياسبرز ومارتن هيدجر، و ا ف بولنوف. وهى شخصيات كتب بدوى عن كثير منها.^(٧)

ويلاحظ سيتبان أرويف أن النيتشوية - من حيث هى تيار فلسفى - لايمثلها إلا فيلسوف واحد هو نيتشه نفسه، إذا إن تلامذته الأشهر فضلوا أن يؤسسوا «مدراسهم الخاصة» كما أن أنصاره وشارحيه الكثيرين لم يضيفوا كلمة واحدة إلى فلسفته، لقد اكتفوا بتكييف تعاليمه مع أذواق المستهلكين المثقفين، شاقين بذلك له درياً نحو فكر الانتلجنسيا البرجوازية وروحها. فهل اكتفى بدوى - ومن قبله الكتاب العرب - بهذه المهمة، أم أنهم طوعوا أفكار نيتشه لخدمة قضاياهم واهتماماتهم. وهذا يقتضى منا الوقوف على صورة نيتشه فى الثقافة العربية قبل كتاب بدوى الصادر ١٩٣٩ وبعده، وما أضافه بدوى إلى هذه الاهتمامات.

يرجع الفضل إلى فرح أنطون فى تقديم فلسفة نيتشه إلى العربية عام ١٩٠٧ - حسب زعمه - يقول فى الجزء الثالث من مجلة (الجامعة)، السنة السادسة أبريل ١٩٠٨:

«قلنا فى الجزء الثانى الذى ظهر فى أول فبراير مانصه: «نظن أن اسم الفيلسوف نيتيش الألماني لم يرد فى اللغة العربية قبل الصفحة التى لخصت فيها (الجامعة) شيئاً من فلسفته السنة الماضية»^(٨) ويعرض لأساس فلسفة نيتشه الذى جاءت فلسفته ضد كل الجهود التى بذلها الفلاسفة فى أوروبا، يقول فرح أنطون: «بينما هذه العقول والنفوس الكبيرة أخذة فى بناء الهيئة الاجتماعية وهى تظن أنها بلغت منتهى العلم والفكر وأن لا جديد بعد مبادئها هذه وإذا بنيتيش يقوم عليها قومه شديدة ينشر عليها ردوده...» إن ما يحدث فى أوروبا مشابه لما يحدث فى الشرق الذى يحتاج أبناؤه إلى مثل أفكار نيتشه «مازلنا نعتقد بما جهرنا به منذ سنتين يوم شرعنا لأول مرة فى تلخيص فلسفة نيتيش وهو أن مبادئ هذا الرجل تحتوى على

كثير من الحقائق الضرورية للحياة وعلى أبناء الشرق أن يطلعوا عليها ليشددوا نفوسهم بها. (٩)

وهو يريد بهذه المبادئ تلك المبادئ التي صب فيها نيتشه كل ما أعطى من قوة النفس وحماسها لتحبيب الحياة والنشاط والقوة إلى الناس، وخلقهم بهذه الصفات خلقاً جديداً أو سحق الانحطاط في النفوس والهمم والأمم. كما أنها تحتوي على كثير من المبادئ التي لا نرى الآن موضعاً لها في الشرق.. ويؤكد لنا أنطون خطته في نقل فلسفة نيتشه وهي أن يلخص منها كل ما لا يمس الأديان والعادات الحاضرة «لأن غرضنا هو استخراج لباب القوة والحماسة من كتبه والإعراض عما بقي» (١٠).

كتب فرح أنطون شعراً على غرار مبادئ نيتشه كما يتضح في «القصيدة على الجبل: بين نيتيش وتولستوي» (١١) ويقوم بتعريب زاراتوسترا، وهو كما يقول أبلغ كتب الفيلسوف وأجملها «ويجعل منه أجمل أثر أدبي في العالم» وإذا جعلنا مقارنة بينه وبين سائر أعمال البشر وجدناها جميعاً دونها. وصواعقه تنقض نحو مستقبل لم يفتن إليه أحد بعد» (١٢) وتحت عنوان «مسائل ورسائل» نشرت المجلة رسالة نقولا معلوف التي يقول فيها: وددت لو أنكم تلخصون كل أقوال نيتيش (دون حذف شيء منها) وتعلقون عليها حواشي اعتراضاتكم وأفكاركم. وأن لا تخذفوا المبادئ الكثيرة التي لاترون لها موضعاً في الشرق، ولا يمكن العمل بها، بل تتحفون قراءكم بها كلها، وردت (الجامعة) موضحة موقفها بقولها: «لقد قصدنا أن نحذف منها كل ما هو بحث ديني محض لأننا أبعد الناس عن البحث الديني الذي لا فائدة منه. وأما المواضيع المتصلة بالمباحث الاجتماعية والفلسفية فإننا نبقينا كما هي» (١٣).

لم تتوقف الكتابات عن نيتشه منذ بدأت مجلة (الجامعة) التعريف بفلسفته والتعريب لكتابه (هكذا تلکم زرادشت)، إلا أن ما يلفت النظر إلى هذه الكتابات المختلفة هو تناولها لحياة نيتشه ومؤلفاته وجنونه والمرأة في حياته والموضوع الذي يجذب الانتباه في فلسفته هو الإنسان الأعلى (السوبرمان). الملاحظة الثانية أن معظم هذه الكتابات هي نقل لآراء مؤلفين فرنسيين أو تلخيص لمؤلفات أوروبية عن نيتشه، وذلك على الوجه التالي:

تناول إدوار منسى علاقة نيتشه بالموسيقار فجنر في دراسة نشرت على حلقتين في مجلة (الثقافة) بعنوان «بين نيتشه وفجنر»^(١٤) وعلاقته بلوسالومي دراسة بنفس المجلة «امرأة في حياة نيتشه» كذلك كتب في (الهلال) بإمضاء أ. م «غرام الفيلسوف نيتشه»^(١٥) وتناولت مجلة (المقتطف) عرض فلسفة بالملجلد ٤٦ يناير ١٩١٥ «الفيلسوف نيتشه» دون توقيع^(١٦) وعرض جيب جاماتى «جنون نيتش» بمجلة الهلال^(١٧) وإبراهيم إبراهيم يوسف «أثر نيتشه» بالمقتطف^(١٨) وترجم محمد فهمى (أغنية الليل) من (هكذا تكلم زرادشت) بالمقتطف^(١٩) وكتب سلامة موسى «نيتشه وابن الإنسان» بالمقتطف المجلد ٣٤ فى ١٩٠٩^(٢٠) وعرض أحمد أمين «السوبرمان أو الإنسان الكامل» فى حلقتين بمجلة (الثقافة) نقلا عن P.D.Ouspemk^(٢١) كما كتب عبد الحميد سالم عدة دراسات حول نيتشه هى «لما قرأت الفيلسوف نيتشه للناقد الفرنسى إميل فاجيه على عدة أعداد بمجلة (العصور) أعوام ١٩٢٨، ١٩٢٩^(٢٢) كما عرض «فلسفة نيتش عن هنرى ليختنبيرجيه» الأستاذ بالسوربون (العصور) أبريل ١٩٢٩^(٢٣) إلا أن الجدل الهام حول فلسفة نيتشه وأفكاره وعلاقتها بالدين والعلم هو ما أثارتته ترجمة فليكس فارس لـ «هكذا تكلم زرادشت» حيث اندفع الناقد الدكتور إسماعيل أدهم لمناقشة الترجمة وفهم فارس لفلسفة نيتشه أو تأويله لأفكار الفيلسوف الألمانى.

ويبرر المترجم والناقد عملهما بالرغبة فى نهضة الشرق، لقد استجاب فليكس فارس لرأى من أشاروا عليه بالترجمة «لتسديد عزم الشبيبة فى هذه المرحلة التى يتوقف على نهضتنا فيها مستقبلنا واستعادة أمجاد تاريخنا»^(٢٤) دعنا نتبع دوافعه إلى ترجمة الكتاب: «إن ما دعانا وأصحابنا المشار إليهم إلى تقرير ترجمة زرادشت هو أننا نظرنا إلى فلسفته من الوجهة الملامسة للمبادئ الدينية والأخلاقية التى تتجه إلى إحياء حضارتنا القديمة على أساسها، وقد رأينا أن هذا المؤلف الفريد فى نوعه ليس من الكتب التى تُنقل إلى بياننا لما لها من قيمة فلسفية وأدبية فحسب، بل هو من الكتب التى يجدر بالناشئة العربية درسها كما يدرسها طلاب الجامعات فى كل

قطر أوربي.. (فقد) اشتمل من المبادئ على ما كان ولا يزال محور الخلاف المستحكم بين ذهنيته وذهنية الشرق العربي بوجه خاص»^(٢٥) ويشير فارس إلى القضايا موضع الخلاف منحازا إلى الشرق والدين ويتناول الناقد ليس أفكار نيتشه فحسب بل فهم المترجم وتأويله لها.

فإذا كان نيتشه يريد خلق الإنسان المتفوق جباراً كشمشون، وشاعراً كداود، وحكياً كسليمان، فهو يكلف الطبيعة ما لا قبل لها به. فإن فارس يرى أن في الحياة مسالك خطتها الإرادة. ألكية وليس لإرادة الجزئية أن تتناولها بتحويل، فمساعد الرقى للأرواح منتصبة من كل مسلك في عالم الظاهر نحو العالم الخفي، وما خصت العناية أقياء الجسوم بالارتقاء»^(٢٦) ويفرق بين نوعين للوصول إلى الرجل المتفوق: طريق العلماء في الغرب، وطريق الدين في الشرق. أما نحن، أبناء هذا الشرق الذي انبثق الحق فيه انصباباً من الداخل بالإلهام لا تلمساً من الخارج، فلنا المسلك المفتوح منفرجاً أمامنا للإعلاء والخروج إلى النور بعد هذا الليل الطويل إذا نحن أخذنا بروح ما أوحاه الحق إلينا. لا بترقية الزراعة والصناعة ولا بنشر التعليم والتهديب ولا بجعل البلاد جنّة ثراءً وتنظيماً، تنشأ الأمة ويخلق الشعب الحر السعيد»^(٢٧)

إن فارس يقدر نيتشه تقديراً عالياً ويرفض - في نفس الوقت - موقفه من الدين ويريد أن يفسره تفسيراً يقربه من الدين. يقول: «إننا لم نر كفرة أقرب إلى الإيمان من كفر هذا المفكر الجبار الثائر الذي ينادي بموت الآلهة، ثم يراه متجلياً أمامه في كل نفس تخفق بين جوانح الإنسان من نسمة الخالدة»^(٢٨) ويعطينا تأويلاً لبعض نصوص نيتشه على لسان زرادشت تجعله أقرب إلى الإيمان، خاصة الفصل الذي عنوانه «بين غادتين في الصحراء» مما دفع إسماعيل أدهم إلى نقد ما قدمه فارس، الذي يعده من أعلام البيان في الشرق العربي عرفته لغة الضاد زائداً عن حياضها أمام تيار العجمة الدخيل، وعرفه الشرق العربي رسولاً يرفع رسالة غيبيات الشرق إلى أمام يقينيات أوربا الجارفة.

يرى أدهم أن أفكار المترجم كانت تتسرب إلى تفكير نيتشه فتختلط به أو تجعل

كلامه ينحرف بعض الانحراف ويعطى أمثلة لذلك بفصل «بين غادتين في الصحراء». يرى فارس أن «أسد الصحراء» رمز للنبي، رمز لانبعاث الفضائل العليا وتحررها على الجحود والتضعضع في الحياة» بينما هو عند أدهم رمز للعقل الإنسانى الطموح إلى نيل حريته وبسط سيطرته على حياته؛ أما الصحراء فيفهمها على أنها الحياة المتحررة. أما صرخة الأسد أمام غادات الصحراء فهي صرخة الإرادة فى الإنسان الطموح لنيل حريته، وغادتا الصحراء، هنا هما فضائل الحياة.^(٢٩) وبينما يرى المترجم أن نيتشه يكلف الطبيعة ما لا قبل لها به ويطمح إلى إيجاد جيابرة لا يصلحون لشيء فى المجتمع لأن الحيوية لا تتصرف من مختلف نوافذها الجسمية فى أن واحد دون أن تقبض على صاحبها لتوقفه فى سلم الارتقاء على مرتبة معلقة بين الاعتلاء والانحطاط، يرى أدهم فى نقده أن هذا الاعتراض لا يصح على نيتشه ذلك أنه يقيم فكرته فى مجيء السوبر مان من ازدياد القوى الحيوية عن طريق ترك المجال للتنازع للبقاء فيبقى القوى الأصلح.^(٣٠)

وعن فكرة فارس «أن الدين الذى يهاجمه نيتشه إنما هو صورة لأصل شوها الغرب، وهى فكرة متكررة عنده، يرى إسماعيل أدهم أنها فكرة خاطئة. فالغرب لم يشوه الدين الذى أخذه من الشرق، وإنما كل ما فعله أنه جعله يتكافأ مع طبيعته الحيوية الإنسانية فأصبغ عليه صبوراً ليست منه، ولكنها من طبيعته، فكان من ذلك صورة الدين تغاير الصورة التى هى عليها فى الشرق. فالغرب كيف الدين على حسب طبيعته حتى يقبله، وهذا التكيف هو - فى الواقع - خلع للثوب الغيبى عن الأديان وجعله إنسانياً. ومن هنا فهو يرى أن نيتشه لم يفعل أكثر مما استلزمته عقلية الآرية وعقله الإنسانى المتحرر من تقاليد الماضى، وهو لم يحاول أن يجعل الإنسان يفلت من حدود إنسانيته بل عمل على أن يرد الإنسان لحقيقته فى عالم الطبيعة بعد أن حاولت الأديان أن تغلته من حدود الطبيعة وتجعله خاضعاً لما وراء الطبيعة حتى أصبح الإنسان حيواناً ميتاً فيزيقياً».^(٣١)

إن وقوف فارس عند الدين باعتباره المرجعية لفهم أفكار نيتشه وتأويلها لسفيد منها أبناء الشرق هو أحد الوجوه فى القضية والوجه الآخر، هو قبول أدهم بالعلم أو

بنظرية التطور التي هي سبيل الرقى الإنساني، ومن هنا فهو يحدد الاختلاف بينهما في قوله: «صديقي المترجم رجل غيبى وأنا رجل ضد الغيبيات على خط مستقيم... والناحية الغيبية عند صديقي هي التي جعلته ينكر التطور كحقيقة بيولوجية». إن فليكس فارس لم يقف على حقيقة البحوث التطورية الحديثة.. وهو ينكر التطور كحقيقة علمية، وهنا موضع الافتراق بيننا». (٣٢)

وقبل هذه المعركة النقدية بخمسة عشر عاماً قدم العقاد عدة دراسات يقارن فيها بين نيتشه والمتبني، فقد نشر في (البلاغ) في ٢١ ديسمبر ١٩٢٣ مقالاً بعنوان «فلسفة المتبني» أوضح فيها أن للمتبني مذهباً خاصاً في الحياة ويعطينا أمثلة عديدة من أشعاره توضح هذا المذهب ويختتم مقالته بأن من يطالع هذه الأمثلة لا يسعه إلا أن يذكر نظائرها من فلسفة فرديريك نيتشه نبي القوة في العصر الحديث، وأن يميل إلى المقابلة بين هذه الآراء المتماثلة في مذهب الشاعر العربي ومذهب المفكر الألماني»، (٣٣) ويخصص مقالة ثانية عن فلسفة المتبني وفلسفة نيتشه» (البلاغ ٧ يناير ١٩٢٤) يؤكد فيها أن آراء شاعرنا وآراء المفكر الألماني تتفق في مسائل كثيرة اتفاقاً توأمياً لا نعلم أعجب منه اتفاقاً بين نابغين مفكرين ينتمى كل منهما إلى قوم وعصر وحضارة ولغة غير التي ينتمى إليها الآخر.

يعتقد العقاد أن المتبني سبق نيتشه إلى أخص آرائه، أخلاق السادة وأخلاق العبيد، ويستشهد ببيت المتبني القائل:

العبد ليس لحر صالح باخ لو أنه في ثياب الحر مولود

ومن قبيل ذلك، ولكن أظهر منه للتقسيم، هذا البيت.

وما في سطورة الأرباب عيب وما في ذلة العبدان عار

والمتبني كصاحبه يأنف من المساواة ويأبى أن يقف دون النهايات من الفضائل والمراتب، فنيتشه يعد المساواة ظلماً ويرى العدل أن تختلف الأقدار بين الناس ويفرض على الإنسان أن يفوق نفسه ويتخطى أفقها إلى أفق أعلى منه على الدوام. والمتبني يحتقر أن يرضى بالحظ الجليل إذا ساواه فيه من هو دونه ويأبى الصيد الشهى إذا تلاقت عليه كرام الطير وبغاثها. وينتهي العقاد إلى أنهما (نيتشه

والمتبنى) مبدعان لا تابعان فى الأخلاق والأقدار. (٣٤)

ويشير العقاد فى دراسة ثالثة بعنوان «فلسفة المتنبى بين نيتشه وداروين» أن المتنبى وفق بين نيتشه وداروين فى تعليل بواعث الأخلاق ومصادر الفضائل. لأنه ألف بين إيثار الحياة وإيثار السيادة فى وسط الطريق، وأبطل التناقض وأزال الخلاف لأنه قال لنا إن كل إنسان إنما يحب حياته هو، لا كل حياة ولا أى حياة... إن مدار التوفيق المتبنى بين رأيى داروين ونيتشه مداره على أن بعض الحياة شر من بعض الموت وأن الجرىء المخاطر يحب حياته حين يوجهها إلى وجهتها من اقتران المصاعب وملاقة الخطوب (٣٥)

وبعد هذا العرض السريع لما كتب أو بعض ما كتب، عن نيتشه فى العربية يتضح لنا أن عمل بدوى الأول عن نيتشه جاء بعد كتابات متعددة عن الفيلسوف الألمانى، ومن هنا فالسؤال الذى يهمنا فى هذه الدراسة هو: ما السبب فى كون دراسة بدوى عن نيتشه أثرت كل هذا التأثير الذى ألمحنا إليه من شهادات المثقفين العرب الذين تسرب إليهم حماس بدوى لأفكار نيتشه؟

هناك بعض الملاحظات المبدئية على الكتابات السابقة توضح الاختلاف بينها وبين ما قدمه بدوى، سواء فى موضوع الاهتمام وطريقة تناول:

الملاحظة الأولى: يغلب على الكتابات السابقة على عمل بدوى تناول الأدبى، حيث مثل كتاب «هكذا تكلم زرادشت» الاهتمام الأساسى لدى معظم من كتب عن نيتشه أو ترجم بعض مقاطع الكتاب، وهذا الاهتمام أدى بمعظم من كتب عن نيتشه الوقوف عند أحداث حياته وعلاقاته بمعاصرة. وتناول أفكاره شعراً أو استدعاء أشعار تتفق مع هذه الأفكار (٣٦)

والملاحظة الثانية: والهامة، هى محاولة رد نيتشه إلى حظيرة الدين وتفسير إحداه بإيمان عميق مستتر، وهى محاولة نجد نظيرها فى تاريخ الفلسفة حين تناول كارل ياسبرز، الفيلسوف الوجودى المؤمن، أفكار نيتشه بما يقربه من المسيحية (٣٧) وهذا ما حاوله كل من فليكس فارس فى تمهيدته لترجمة (هكذا تكلم زرادشت) وحاوله من بعد بولس سلامة فى الفصل الذى عقده عن نيتشه فى كتابه «الصراع فى

والملاحظة الثالثة: أن تقديم نيتشه إلى العربية كان يهدف إلى بيان دور نيتشه في تجديد الأفكار ودعوته للرقى والتقدم ورفض القديم، ومن هنا أكد كل من فرح أنطون وفليكس فارس وإسماعيل أدهم على أهمية أفكار نيتشه في رقى العقول ونهضة الشرق. أراد بدوى بتقديم نيتشه إلى العربية أن يقدم لنا خلاصة الفكر الأوروبى، وقد اختار من موضوعات هذا الفكر ما يمثله أحسن تمثيل ويعبر عن سموه أصدق تعبير من الفلاسفة. ومن هؤلاء لم يختار بدوى إلا أقدروهم على الإلهام وعلى إثارة التفكير وأقربهم إلى روح العصر، وأعظمهم أثراً فى تطور أوروبا الروحية وأشدهم عناية بمشاكل الإنسانية الحقيقية، وأحرصهم على أن يكون فكرهم حياً ينبض بدماء الحياة خصباً يقدر على النمو من بعدهم والإنتاج، جريئاً يهاجم المشكلات، حراً يبدد ما قدس من الأوهام. ومن هؤلاء اختار صورة نيتشه وهى، كما يقول: «صورة حية قوية فيها عنف وفيها قسوة، وفيها تناقض وفيها اضطراب وفيها خصب وفيها حياة» وإذا سألنا: لماذا سعى بدوى إلى تقديم هذه الصورة؟

يريد بدوى أن يعرض على أبناء هذا الجيل - عن طريق هذه السلسلة - العقل الأوروبى وهو يناضل ويجاهد فى سبيل إيجاد نظرة فى الحياة وفى الوجود. من شأنها أن تخلق طابعاً ممتازاً من الإنسانية، وصورة جليلة سامية من صور الحضارة «نريد أن نبين لهم كيف يفكر هذا العقل ويبدع ويفكر ويخلق، وكيف يتطور فتطور معه صور الوجود وقيم الحياة»^(٣٩). والحقيقة أن بدوى لا يهدف أن يؤمن أبناء هذا الجيل بمذاهب هذا الفكر، ولا يطلب منهم أن يسيروا فى الاتجاه الذى سار فيه، دون افتراق عنه أو محاولة لإنكاره ومخالفته. فلا يعنيه من أمر هذا الإيمان شىء، إنما الذى يعنيه حقاً هو أن يحملهم على أن يفكروا فيما فكر فيه العقل الأوروبى ويتأملوا فى المشاكل التى أثار، والطول التى قدم، كى يتخذوا من هذا النظر وذلك التأمل والتفكير، دافعاً ومادة وأداة من أجل إيجاد هذه النظرة الجديدة التى باسمها سيعلمون ثورتهم الروحية المنشودة. يهدف بدوى - إذن - إلى ثورة روحية تعم أبناء هذا الوطن. وهذا موقف سياسى وليس علمياً يؤكد حقيقة انتماء بدوى إلى حزب

(مصر الفتاة) وقصائده الوطنية التي نشرها بمجلة الحزب وكتاباته السياسية التي تعبر عن موقفه السياسي، يأتي كتاب نيتشه في هذا السياق وهو يهدف إلى التمهيد لإيجاد النظرة الجديدة التي على أبناء هذا الجيل أن يصلوا إليها.

إن الغاية التي يتغياها بدوى في تصديره لكتاب نيتشه هي التأكيد على ضرورة الثورة الروحية. فليس من شك في أن هذا الوطن في أشد الحاجة إلى الثورة الروحية على ما ألف من قيم، وما اصطاح عليه حتى الآن من أوضاع؛ في أشد الحاجة إلى أن يطرح مكانها نظرة أخرى، كلها خصب، وكلها قوة، وكلها حياة؛ وفيها تعبير واضح عن كل ما يخالج ضميره من مطامح نحو السمو ونحو العلاء وشعور حى نابض بالنزوع إلى تطور روحى هائل تصاعد فيه قواه، مندفعة متوترة، حادة متوثبة، خالقة تبدع في كل طور من أطوار هذا التصاعد صوراً للوجود خصبة سامية وقيما للحياة جليلة عالية: في الإيمان بها الإيمان بإمكان خلق جيل من أبنائه عظيم، وفي تحقيقها تحقيق لنوع من الحضارة زاهر ممتاز^(٤٠). ويحدد لنا خصائص هذه النظرة «فلايد لهذه النظرة الجديدة أن تكون متفقة مع أحوال العالم الحاضر، محققة لمقتضيات هذا العصر، باذلةً جهودها في التوفيق بين متناقضاتها. وفي حل ما تستطيع من مشكلاته حاسبةً حسابها لكل ما يعج به من مسائل وكل ما يضطرب فيه من أحداث... فلكي نضمن - إذن - لهذه النظرة الجديدة الحياة، ولكي تكون لها قيمة - حقاً - في السمو بالحياة والارتفاع بدرجة الوجود، لامناص لنا من أن نجعلها شاملة تواجه كل مشاكل هذا العصر بكل ما فيه من إشكال ومن تعقيد^(٤١).

إذا توقفنا أمام تصدير بدوى - وهو تصدير ذو دلالة - لظهرت لنا دلالة اختيار نيتشه، فمن سلسلة الفلاسفة في خلاصة الفكر الأوروبي، وهي دلالة سياسية أيديولوجية، تهدف إلى ما يسميه بدوى: القيام بثورة روحية اقتضتها ظروف الحرب، فإذا كانت الحرب الماضية (العالمية الأولى) قد هيأت الفرصة لهذا الوطن كي يثور ثورته السياسية، فلعل هذه الحرب الحاضرة أن تكون فرصة تدفعه إلى القيام بثورته الروحية. وبدوى ليس بعيداً عن الأحداث السياسية، فهو مسئول العلاقات الخارجية بحزب (مصر الفتاة). يستشعر خطر الحرب القادمة ويكتب عنها ويراهها تكشف

عورات المذاهب السياسية المختلفة المخالفة. وهنا يكون التعرف على الفكر الأوروبي هادياً لأبناء هذا الجيل فى البحث عن الحلول، ومن أعلام هذا الفكر يكون نيتشه. وإذا تساؤلنا لماذا نيتشه بالتحديد؟ قد يخطر على الذهن تشابهه فى التكوين الفكرى بين المفكر العربى والفيلسوف الألمانى. وإذا كان ذلك كذلك فما هى أوجه التشابه بينهما؟ وما هى مكانة نيتشه فى فكر بدوى؟ علينا أن نشير - قبل تحليل ما بينهما من تشابه انطلاقاً من كتاب بدوى عن نيتشه - إلى ضرورة أن نميز بين عرض بدوى المبكر للفيلسوف الألمانى فى كتابه الأول، وبين الإشارات التى ذكرها عنه فى كتاباته التالية وهى إشارات قليلة موجزة ولكنها ذات توجه أساسى فى تكوين بدوى الفلسفى تختلف تماماً فى توجهها عما فى كتابه الأول؛ الذى نعهده أقرب إلى الثقافة السياسية التى يتبناها ويدعو إليها بدوى. وإن كان لا يخلو - كما سنرى - من بعض الأفكار الفلسفية التى شغل بها المفكر العربى فى فترة إبداعه الأولى.

يستهل بدوى كتابه بقصيدة نيتشه التى تعبر عن دورة التطور؛ دقائق الساعة الاثنتا عشرة؛ وأى شىء أقدر من الساعة على التعبير عن الحياة والكشف عن نسيجها العضوى الحى؟ ذلك لأنها رمز الزمان ومقياسه. إن الزمان موضوع اهتمام بدوى الأساسى، هو السطور الأولى التى يفتح بها كتابه عن نيتشه «فيلسوف الحياة» فليس فى وسع المرء أن يصف حياة الفرد وصفاً دقيقاً، إلا إذا استعان بالزمان فى وصفه، فصور هذه الحياة على شكل تطور، له أدواره ولكل دور طابعه ورسمه»^(٤٢). يصف بدوى حياة نيتشه من خلال الزمان، ونيتشه ممن يجمعون بين حياتهم وفكرهم فى نسيج واحد. الذين يحيون أفكارهم قبل أن تنتجها عقولهم وقبل أن يعرضوها على الناس.

وإذا كانت الساعة فى دقتها الأولى تدعونا إلى دراسة نيتشه «الإنسان». فإن وصف بدوى له يستحق التحليل، ففى كثير من فقرات الكتاب التى يعرض فيها بدوى أفكار وأقوال نيتشه يتوقف منبهاً أن نيتشه - وهو يكتب هذا الكلام - لم يكن يصف غير نفسه، ويستوحى غير طبيعته أو يقول ما أصدق هذا الكلام بالنسبة لنيتشه^(٤٣). وأشعر - وقد يوافقنى القارئ فى ذلك - أن كثيراً من هذه العبارات تصدق بنفس

القدر على بدوى نفسه. يقول وهو يتحدث عن نوعين من الوحدة تفرق بينهما اللغة الألمانية: الوحدة المؤلة التي يجد المرء فيها نفسه، والاعتزال الاختيارى، وهو الانسحاب الإرادى إلى دائرة وجوده، وفيه يشعر المرء بنفسه وذاته شعوراً قوياً. «والنوع الثانى هو الانسحاب الإرادى، هو وحده الذى نعنيه - هنا - حين نتحدث عن الوحدة عند المفكرين وأصحاب الفن. فهو وحده الشرط الجوهرى لكل إنتاج وكل خلق فكرى أو فنى»^(٤٤). لن نتسرع لنعقب بأن بدوى هنا وهو يصف نيتشه وكبار المفكرين إنما يصف نفسه ويفسر لنا غربته أو انسحابه الاختيارى، بل علينا أن نواصل وصفه للوحدة عند نيتشه. وهو يفعل ذلك باستخدام كلمات نيتشه فى أحد خطاباتة الذى يقول فيه:

أشعر بأنه قضى على بالوحدة حتى أصبحت حصنى الحصين. وليس لى فى هذا الآن أى اختيار. وإن ما يدعونى إلى الاستمرار فى الحياة من واجب ضخم سام لا مثيل له، يدعونى أيضاً إلى تجنب الناس وعدم التعلق بشخص ما من الأشخاص.»^(٤٥) سوف نتخذ من تعليق بدوى على نيتشه تعليقاُ عليهما معاً، يقول بدوى: «ليتخذ من الوحدة وعدم إقبال الناس عليه وجههم له دليلاً على سموه، ومجالاً للزهو والكبرياء.»^(٤٦)

يشعر نيتشه بذاته (وهذا ما ينطبق على بدوى نفسه) شعوراً مفراطاً قوياً، ويعتد بنفسه اعتداد كبيراً، حتى أصبح يعتقد أنه قادر على التأثير فى العالم كله تأثيراً كبيراً جاسماً»^(٤٧). إن الطابع الرئيسى السائد فى طبيعة نيتشه - والتى يلخصها أحسن تلخيص - هو الامتياز الخارق، الممتلئ شعوراً بذاته، المتفانى فى الإخلاص لرسالته، امتياز يجعل من حياته حياة غريبة شاذة لا يكد تاريخ الإنسان الروحى أن يجد لها مثيلاً ولا قريناً؛ ومن وجوده مأساة هائلة رائعة... وبطلها شخص مفرد احتملها كلها وحده، وكانت الوحدة وطنه وقصره الشامخ المخيف؛ وامتلاء يحمله على الاستقلال المطلق، والجرأة التى تكاد تبلغ حد الوقاحة، وفرض الإرادة والشخصية فرضاً يشعر الناس بإزائها شعورهم وهم فى جوار بناء ضخم يتحدى السماء، فيبتعدون عنه خائفين من أن ينقض عليهم، ويحيا هو فريداً ليس بجواره إنسان»^(٤٨).

النتيجة الثانية التي نريد أن نصل إليها - والتي تفصح عنها الفقرات السابقة، من وجهة نظرنا - هي التشابه بين نظرة نيتشه لنفسه وبين نظرة بدوى لذاته: الوحدة، العزلة، الابتعاد عن الناس، والنظرة الدونية لهم، والإحساس بالواجب والمهمة والغاية التي وجد كل منهما من أجلها. ظهرت لدى بدوى في انتمائه السياسي لمصر الفتاة. والسؤال: كيف لمفكر يشعر بهذا الامتياز الخارق أن يقوم بعمل سياسي، والعمل السياسي بطبيعته ومن أول لوزامه التعامل مع الجماهير؟ هل هذه النظرة للذات هي التي غيرت قليلاً من أسلوب وطريقة إنجاز بدوى لمهمته وهي إحداث ثورة روحية بين أبناء هذا الجيل وتحويلها من العمل السياسي إلى العمل الفلسفي؟ إن ما سعى إليه بدوى في السنوات الخمس التالية هو إنجاز مشروع فلسفي وضع الأسس الأولى له في بداية الأربعينيات وسعى بعد ذلك لتطويره.

علينا إذن أن نعرض لموقف بدوى من نيتشه، ليس من خلال «خلاصة الفكر الأوربى» باعتباره صورة حية نابضة قلقة متوترة تساعدنا في إبداع نظرة للحياة والوجود - بصفة عامة - بهدف إحداث ثورة روحية بين أبناء هذا الجيل، بل من أجل إبداع نظرة فلسفية متعمقة أطلق عليها بدوى اسم «الزمان الوجودى». وكان نيتشه - في هذه النظرة - خطوة فلسفية ممهدة لما يذهب إليه بدوى.

في رسالته للماجستير - التي نوقشت في نوفمبر ١٩٤١ - يحلل بدوى مشكلة الموت وينكر على المسيحية إدراك الموت إدراكاً حقيقياً، ذلك أن نظرتها للموت بوصفه شراً جعلتها تنظر إليه على أنه مضاد للحياة، ولكي تكون النظرة للموت صحيحة يجب أن نجعل الموت جزءاً من الحياة، وهذا ما فعلته فلسفة الحياة؛ خصوصاً عند أشهر ممثليها من الألمان، نعى نيتشه وزمل. فقد قال نيتشه: «حذار أن تقول إن الموت مضاد للحياة».^(٤٩) إن نيتشه هنا يمثل خطوة في تفكير بدوى في مشكلة الموت.

ونفس الأمر نجده في رسالة بدوى للدكتورة عن (الزمان الوجودى) - وهو ما يمثل بالنسبة له إنجازاً فلسفياً - ففي القسم الثانى من كتابه يتناول بدوى الوجود الناقص مؤكداً «لا وجود إلا بالزمان، والزمان سر التناهى، فكل وجود لفناء».

فالوجود نوعان: فيزيائي وذاتي؛ الثاني وجود الذات المفردة، والأول كل ما عدا الذات، سواء أكان ذاتاً واعية أم كان أشياء. فالوجود الذاتي وجود مستقل بنفسه في عزلة تامة - من حيث الطبيعة - عن كل وجود للغير. ويرى أن الفكر الحديث صراع بين الذات والموضوع من أجل تحرر الأول من الثاني؛ صراع بلغ أوجه في المثالية الألمانية التي كاد أن يتم على يديها هذا التحرر. ولكنها - بدلاً من تأكيد الذات الفردية - استبدلت بها ذاتاً كلية مطلقة كما عند هيغل، وساركيركجورد خطوة أخرى في هذا السبيل، ولكن نحو تأكيد الذات الفردية وتلاه نيتشه - وهو ما يهمنا - فتقدم في طريق الذاتية المفردة بسرعة أكبر. ولكنها لم ينتهيا - في الواقع - إلى تأكيد الذات المفردة بالمعنى الوجودي الخالص، نظراً لتأثر كليهما بنزعات غير وجودية. فالأول سادت تفكيره نزعة دينية مما جعل نظرتة مشوبة بصيغة تقويمية ظاهرة منذ البداية. وطابع التقويم هذا نجده كذلك عند نيتشه وبشكل أكثر صراحة ووضوحاً، فإنه حينما يتحدث عن الذات المفردة، إنما يفكر دائماً في الإنسان الأعلى، ولذا غلب عليه هذا التفكير، فلم يظفر، أو لم يأتنا، بنظرة في وجود الذات المفردة من حيث طبيعتها في الوجود، لا من حيث ما يجب أن تفعله لتبلغ كمالها وتحقق علاها بذاتها فوق بقية الذوات الأخرى. فضلاً عن هذا فإن كليهما لم يُقم مذهباً واضح المعالم على أساس وجود الذات المفردة^(٥٠) وهو ماسعى إليه بدوى في عمله هذا.

يمثل نيتشه - إذن - خطوة في اتجاه بدوى الفلسفى، يضع الأساس ويكمل بدوى البناء. هنا تختلف لغة بدوى التحليلية النقدية عن لغته في كتابه عن نيتشه التي يختلط فيها الأدب بالفلسفة حتى نلظنه شاعراً يهيم حماساً بموضوعه يقدم لنا بدوى في هذا القسم من كتابه «الزمان الوجودى» لوحة مقولات جديدة؛ مقولات العاطفة ومقولات الإرادة، ومنها (الخطر) فالمقولة الأولى للإرادة هي الخطر أو المخاطرة: الخطر بوصفه صفة للوجود، والمخاطرة بوصفها فعلاً لمن يتعلق بهذه الصفة. وهذا ما أدركه نيتشه تمام الإدراك فجعل الإرادة في أصلها إرادة الخطر؛ وعنده أن الحياة - بوجه عام - معناها الوجود في خطر... ولا يقتصر نيتشه على تأكيد ضرورة الخطر بالنسبة للإرادة وحدها. بل وأيضاً بالنسبة إلى المعرفة.^(٥١)

وينطلق بدوى من نيتشه إلى تحليل مقولة الخطر تحليلاً وجودياً فى إطار مذهب
الفلسفى الوجودى.

لعلنا الآن ميزنا بين عاملين أساسيين فى تعامل بدوى مع نيتشه. الأول هو نيتشه
الفيلسوف المفكر الداعية صاحب الرسالة التى تبشر بالإنسان المتفوق الممتاز الذى
وجد فيه بدوى تعبيراً عن ذاته فى كتابه عن «نيتشه». والثانى هو تعامل بدوى مع
أفكار نيتشه من أجل صياغة مذهب الوجودى الذى ظهر فى «الزمان الوجودى».
والذى توقف اهتمامه به فى كتابه «دراسات فى الفلسفة الوجودية» الذى يقدم فيه
بدوى خلاصة مذهب الوجودى، والذى لم يخصص فيه دراسة عن فيلسوفه الذى
أصدر عنه أول كتبه. معنى ذلك - بالنسبة لنا - أن هناك مجالين أراد من خلالهما
بدوى تحقيق ذاته وتأكيد امتيازاه: الأول هو الدعوة السياسية والثانى هو الفكر
وتأسيس المذهب الفلسفى. وكان نيتشه فى كلا المجالين هو نقطة الانطلاق. ويتجلى
توجه بدوى الفلسفى، والذى لا يظهر الا عرضاً فى كتابات بدوى، وهى - بلغة ما بعد
الحدثة - المسكوت عنه فى خطاب بدوى الفلسفى.

يستشهد بدوى (فى كتابه شوينهور) بأراء نيتشه وهو يتحدث عن سمو المفكر
العقلى؛ فالمفكر الذى يكرس نفسه للإلهام الفكرى الفلسفى لا يبقى مجالاً فيها لأى
إلهام سياسى، فخلق به - إذن - أن يدع السياسة والحزبية. ويبين دور كل من المفكر
تجاه الدولة والدولة تجاه المفكر - ومع هذا وقبله - على المفكر ألا يتردد لحظة واحدة
فى أن يأخذ مكانه وسط الصفوف فى الجبهة حين يرى وطنه فى خطر حقيقى: فهذا
واجب أولى لا صلة له بالسياسة. وعلى الدولة أن تدع المفكر وشأنه. ففى اهتمام
الدولة بالفلسفة خطر على الفلسفة مابعده خطر. وما يسمى «حماية الدولة للفلسفة»
هو فى الواقع حكم عليها بالإعدام: لأن الفيلسوف سيصير - حينئذ - عبداً من عبيد
الدولة يأتّم بأمرها ويفكر لحسابها وعلى النحو الذى تهواه فيجعل الدولة فوق الحق،
أى يقضى على كل فلسفة. فالدولة مصدر ثبات، وأبغض شىء بالنسبة لها التغيير
والصيرورة، فستكون إذن عدوة عنيدة لكل جدة فى الفكر، أى أنها ستكون خصماً
لطبيعة الفلسفة نفسها وجوهرها الحقيقى. (٥٢)

يفسر لنا بدوى ذلك على ضوء فلسفة نيتشه، فالدولة لا تحمى من الفلسفة إلا قليلة الخطر، المسألة، أى أنها لا تحمى إلا أخطاها وأدناها وأجدرها بأن لا تسمى باسم الفلسفة، لأن الفلسفة الحقة هي الفلسفة الخطرة، هي تلك التي «تؤذى» وتجرح، ومعنى هذا أنها تحمى الفلسفة الوضيعة وتعمل على القضاء على الفلسفة الممتازة. وهذا أشد خطر يمكن أن تتعرض له. والسبب فى ذلك كما يرى بدوى أن الدولة لا يمكن أن تعيش إلا على طائفة من المبادئ السهلة العامة الشعبية، ولا تسمح بالخروج عليها أو تعمقها والبحث فيما وراءها. ويستشهد بقول نيتشه: «إن الفيلسوف الذى يرضى لنفسه أن يكون فيلسوف الدولة يجب أن يرضى لنفسه أيضاً أن ينظر إليه باعتباره أنه أنكر على نفسه (حق البحث) فى الحقيقة كلها، وبكل ما تحتوى عليه من أسرار. كما أن الدولة إذا جعلت لنفسها (فلسفة رسمية) فسيكون لها وحدها الحق فى اختيارها، أى أن الدولة ستضع نفسها موضع الحاكم الذى يستطيع أن يميز بين الفلسفة الجيدة والفلسفة الرديئة. ومتى كانت الدولة قادرة على شىء من هذا! إنها لا يمكن أن تختار، حتى لو سلمنا بأن فى مقدورها التمييز، إلا تلك التى تلائمها وتتفق مع الأغراض التى تتوخاها، سواء أكانت هى الجيدة أم كانت الرديئة، فلا يعنىها من هذا شىء» (٥٣).

إن هذا الفهم لقضية السلطة، وهى مشكلة فلسفية، ازداد الاهتمام به خالياً، خاصة لدى ميشيل فوكو، شغلت تفكير فيلسوفنا منذ فترة مبكرة من حياته، وتناولها فى كتابه عن شوبنهاور الصادر عام ١٩٤٢ انطلاقاً من رؤية نيتشه للعلاقة بين الفيلسوف والدولة. ولعل قضية استقلال الفكر عن الدولة - وهى مسألة صعبة بحيث إن أشد المفكرين معارضة للدولة انطوواً تحت سيطرتها بشكل أو بآخر - أقول ربما كانت هذه القضية وعدم حسمها هى السبب الرئيسى فى غربة ووحدة وعزلة مفكرنا الكبير. الذى علينا أن نذكره بما كتبه «إن المفكر يجب إلا يتردد لحظة واحدة فى أن يأخذ مكانه وسط الصفوف فى الجبهة، حين يرى وطنه فى خطر حقيقى: فهذا واجب أولى لا صلة له بالسياسة» (٥٤).

الهوامش والملاحظات:

- ١- راجع دراستنا (قراءة في كتابات بدوى السياسية)، مجلة أدب ونقد، القاهرة، العدد ١٠٠
- ٢- د. عبد الرحمن بدوى: موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨٤ مادة (بدوى)
- ٣- محمود أمين العالم: الدكتور عبد الرحمن بدوى هل يسير فى طريق مسدود، فى كتاب الإنسان موقف، دار قضايا فكرية، القاهرة ١٩١ ص ١٢٤
- ٤- محمد عفيفى مطر: ابن رشد: شهادة من مقصورة المتفرجين، مجلة (ألف) العدد ١٦ عام ١٩٩٦ ص ١٦٣
- ٥- د. ماهر شفيق فريد: عبد الرحمن بدوى؟ دراساته فى الآداب الغربية. الكتاب التذكارى عن بدوى الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة - ١٩٩٧م
- ٦- ستيان أوريف: على دروب زرادشت، ترجمة فؤاد أيوب، دار دمشق ١٩٨٣
- ٧- راجع الدكتور عبد الرحمن بدوى: موسوعة الفلسفة مواد: ديلتاي - ماكس شيلر - ازفلد شبنجلر - ألفريد باوملر - فيبر - أوجين فينك - كارل ياسبرز - مارتين هيدجر. وكذلك كتابه (دراسات فى الفلسفة الوجودية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت. واشبنجلر، دار النهضة العربية، القاهرة
- ٨- فرح أنطون: الفيلسوف نيتيش وفلسفته، مجلة (الجامعة) الجزء الثالث، السنة السادسة أبريل ١٩٠٨ ص ٥٧
- ٩- المصدر السابق ص ٤٢
- ١٠- المصدر السابق ص ٤٣
- ١١- فرح أنطون: القصيدة على الجبل. مجلة (الجامعة) ص ٢١٢ - ٢١٨
- ١٢- المصدر السابق ص ١٠٢
- ١٣- المصدر نفسه ص ١١٥ - ١١٦
- ١٤- إيوار منسى: بين فاجنر ونيتشه، (الثقافة) العددان ٦٥٤ - ٦٥٥، ص ٦ - ١١، ١٦ - ١٨ وهى نقل لما كتبه H.A.Reybn: (نيتشه... قصة الفيلسوف الإنسانى)
- ١٥- إيوار منسى: امرأة فى حياة نيتشه، (الثقافة): العدد ٦٦٥ ص ٢٦ - ٢٨ و(الهلال) المجلد ٥٥ عام ١٩٣٧ ص ٨٨٥ - ٨٨٨
- ١٦- دون توقيع (المقتطف): الفيلسوف نيتشه، (المقتطف) المجلد ٤٦ عام ١٩١٥ ص ٢٨ - ٣٠
- ١٧- جيب جاماتى: جنون نيتيش، مجلة (الهلال) العدد ص ١٣٢١ - ١٣٢٤
- ١٨- إبراهيم إبراهيم يوسف: (أثر نيتشه فى العصر الحاضر)، (المقتطف) المجلد ٩٠ مايو ١٩٣٧ ص ٥٨٥ - ٥٩٠
- ١٩- محمد فهمى (مترجم): (أغنية الليل) من (هكذا تكلم زرادشت) (المقتطف) يوليو ١٩٣٧ ص ٢٣١ - ٢٣٢
- ٢٠- سلامة موسى: نيتشه وابن الإنسان، مجلة (المقتطف) المجلد ٣٤ عام ١٩٠٩
- ٢١- أحمد أمين: السوبرمان أو الإنسان الكامل، (الثقافة) العددين ٢٢٤ - ٢٢٥
- ٢٢- عبد الحميد سالم: لما قرأت الفيلسوف نيتشه للناقد الفرنسى إميل فاجيه، مجلة (العصور)

- المجلدات ١٥ - ١٨ - نوفمبر ١٩٢٨ - فبراير ١٩٢٩
- ٢٢- عبد الحميد سالم: (العصور) أبريل ١٩٢٩ ص ٤٤٢ - ٤٥٠
- ٢٤- فليكس فارس: تمهيد ترجمة كتاب نيتشه (هكذا تكلم زرادشت) ص ٢٢
- ٢٥- الموضوع السابق
- ٢٦- المصدر نفسه ص ٧
- ٢٧- المصدر السابق ص ١١
- ٢٨- المصدر السابق ص ١٤
- ٢٩- د. اسماعيل أدهم: (هكذا تكلم زرادشت) ترجمة الأستاذ فليكس فارس، (الرسالة) يونيه ١٩٣٨ ص ١٧٩٩
- ٣٠- المصدر السابق ص ١٨٣٧
- ٣١- المصدر السابق ص ١٨٣٩
- ٣٢- المصدر السابق ص ١٨٤٠
- ٣٣- العقاد: فلسفة المتنبى. (البلاغ) ٣١ ديسمبر ١٩٢٣
- ٣٤- العقاد: فلسفة المتنبى وفلسفة نيتشه، (البلاغ) ٧ يناير ١٩٢٤
- ٣٥- العقاد: فلسفة المتنبى بين نيتشه وداروين (البلاغ)
- ٣٦- تشير إلى ما قدمه فرح أنطون (القصيد على الجبل) وكذلك ما قدمه بولس سلامة: (الصراع في الوجود)، دار المعارف - ١٩٥٢. وما أورده العقاد من أبيات المتنبى التي تتماثل مع أفكار نيتشه
- ٣٧- انظر عرض الدكتور حسن حنفي لهذه المحاولة في بين ياسبرز ونيتشه (الفكر المعاصر)، القاهرة أكتوبر ١٩٦٩ العدد ٥٦ وكذلك في كتابه (قضايا معاصرة) الجزء الثاني - دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٦ ص ٣٧٥ - ٣٩٧
- ٣٨- بولس سلامة، المصدر السابق ص ٢١٧ - ٢١٨
- ٣٩- بدوى: نيتشه. مكتبة النهضة المصرية الطبعة الرابعة ١٩٦٥ ص (ل).
- ٤٠- المصدر السابق ص (ط)
- ٤١- المصدر نفسه ص. (ك)
- ٤٢- المصدر نفسه ص ٥
- ٤٣- المصدر السابق ص ٢٧، ٨٦
- ٤٤- المصدر نفسه ص ٨٤
- ٤٥- المصدر نفسه ٩٤ - ٩٥
- ٤٦- الموضوع نفسه
- ٤٧- المصدر السابق ص ١٠٥
- ٤٨- المصدر نفسه ص ١١٧
- ٤٩- بدوى: (مشكلة الموت في العبقرية والموت)، وكالة المطبوعات، الكويت ص ١٧ - ١٨
- ٥٠- بدوى: الزمان الوجودي، دار الثقافة بيروت ص ١٥٤
- ٥١- المصدر نفسه ص ١٨٢ - ١٨٣
- ٥٢- بدوى: (شوينهور)، دار النهضة العربية القاهرة ط ٢ عام ١٩٦٥ ص ٨
- ٥٣- المصدر السابق ص ٨ - ٩
- ٥٤- المصدر نفسه ص ٨.

بدوی و شبینجار

د. منی یوسف

obeikandi.com

عنى د. عبد الرحمن بدوى بإصدار عدد من الكتب فى سلسلة خلاصة الفكر الأوروبى حول عدد من فلاسفة الغرب من، بينهم الفيلسوف الألمانى شبنجلر الذى كان لكتابه «تدهور الغرب» Der Untergang Abendlandes صدى كبير فى أوروبا وقت صدوره فى بدايات القرن العشرين، حتى أنه صنف كأعظم مؤلف صدر فى النصف الأول من هذا القرن. حيث يعالج الكتاب جميع مواضيع الحضارات الإثنائية وإنجازاتها من فن وعلم وفلسفة ومذاهب وأديان. وذلك فى كل الحضارات التى أنشأها العقل البشرى، وذلك منذ بدء الخليقة وحتى صدور هذا الكتاب، ويتضمن الكتاب معلومات غزيرة حول هذه الحضارات، ومنجزاتها، وكثيرا من التفاصيل عن هذه الحضارات، مما يفسر كبر حجم الكتاب الذى يبلغ مجموع صفحاته فى الترجمة العربية له ألف وستمئة صفحة من القطع الكبير، ويحتوى جزؤه الأول على اثنى عشر فصلاً، وجزؤه الثانى على ثلاثة عشر فصلاً.

يتضمن الكتاب العديد من الأفكار حول نشأة الحضارة وتطورها وانهارها، ومظاهر هذه الحضارات وخصوصيتها، كما يحوى أيضا الكثير من الأمثلة حول الأفكار المطروحة فى الكتاب وتطبيقاتها على الحضارات المختلفة على مر العصور واختلاف الحضارات.

ويرى شبنجلر أن أفكاره تعد ثورة كوبرنيقية فى فلسفة التاريخ، حيث يرفض التفسيرات السابقة عليه للتاريخ ويقدم لها تفسيراً جديداً، يرى فيه أن الحضارات هى مجموعة من الدوائر المغلقة، كل حضارة مستقلة بنفسها تبدأ وتتحقق بفعل روح أولية خاصة بها، ثم تموت وتنهار بعد أن تستنفد هذه الروح قدراتها، وتحقق كل ما تستطيع تحقيقه من منجز حضارى، سواء على مستوى البناء أو العلم الطبيعى أو الفكر أو الدين أو الفن، ونستطيع أن نلمح طبيعة هذه الروح الخاصة بالحضارة فى كل منجز من منجزاتها. فالبناء فى الحضارة العربية مثلاً يتفق مع روح الدين الإسلامى، والفن التشكيلي الذى يتبدى فى رسومات الجوامع يتفق مع الدين الإسلامى وكل ذلك يتفق مع روح الشعر العربى الإسلامى، أى أننا نستطيع أن نرى

الروح العربية الإسلامية واضحة في كل المنجزات الحضارية التي خلفتها هذه الحضارة، وما يقال عن الحضارة العربية الإسلامية يقال عن غيرها من الحضارات سواء كانت قديمة أو حديثة، في الشرق أو في الغرب.

وعندما يعرض د. بدوى لأفكار شبنجلر عن «تدهور الغرب» يتفاعل مع هذه الأفكار التي يبدو متأثراً بها، فهو يرى أن أفكار شبنجلر عن الحضارات تعد بالفعل ثورة كوبرنيقية لو قارناها بفلسفات التاريخ السابقة عليه، وتحت عنوان الثورة الكوبرنيقية يتحدث عن التاريخ والطبيعة كما رآه شبنجلر: فالطبيعة مجموعة من الحقائق، بينما التاريخ مجموعة من الوقائع، والطبيعة ثابتة متكررة الحدوث، بينما التاريخ متحرك ولا يكرر وقائعه فهي دائما متغيرة. ويتميز عرض الأفكار الخاصة بالتاريخ والطبيعة والتجربة الحية والتجربة الآلية بأن د. بدوى لا يكتفى بعرضه لأفكار شبنجلر فقط، بل يعرض لأفكار غيره من الفلاسفة الذين قدموا آراء حول هذه الأفكار من قبل، فهو يعرض لآراء كل من دريس وبرجسون عن المذهب الحيوي مما يعطى للقارئ فرصة للمقارنة بين الأفكار، كذلك يعرض لأفكار دلتاي ومذهبه في العلوم الروحية، هو لا يفغل الحديث عن هيجل عندما يتحدث عن فكرة المصير، بل إنه يتتبع هذه الفكرة منذ نشأتها عند اليونان ثم عند شلر وهيلدرن أو هيجل ونيتشة وزمل، ثم يعرض بعد ذلك لرأى شبنجلر حول فكرة المصير والحقيقة إن هذه الطريقة في تناول الفكرة تساعد في وضع الفكرة الرئيسية التي يتناولها المؤلف في إطارها التاريخي، فالفكرة ليست جديدة ولكن النظرة إليها تختلف باختلاف المدارس الفلسفية التي تناولتها.

فالفكر اليوناني القديم مجد المصير ورفعته إلى مرتبة الآلهة، لأن الآلهة أنفسهم خاضعون للمصير. ثم لعبت هذه الفكرة من بعد دورا خطيرا عند الرواقيين الذين حاولوا أن يوحدوا بين المصير و العقل باعتبار أن المصير هو العقل الكوني، وجاءت المسيحية من بعد فحاولت أن تحد من سلطان المصير، لأن المسيحية تمجد بنوع خاص فكرة الحرية سواء بالنسبة إلى الله أو بالنسبة إلى الفرد، ولهذا قالت بعكس ما قالت به الروح اليونانية، إن الله فوق المصير، أما قوى المصير الموجودة في

الكواكب فإنها شياطين في أدنى المراتب. وفي عصر النهضة، استعادت فكرة المصير ما كان لها من مكانة من قبل وارتبطت بالتنجيم، فقال فلاسفة عصر النهضة: إن حالة الكواكب التي يولد فيها الإنسان لا تعين كل دقيقة في حياته تعيين ضرورة آلية، وإنما هي تحدد الخط الرئيسي الذي عليه تسير حياة الفرد. وفي القرن التاسع عشر - حيث أخذت فلسفة التاريخ وضعها وأصبح للتاريخ كيان في مقابل الطبيعة - عادت فكرة المصير لتحتل المكانة الأولى، وظهرت العناية بهذه الفكرة عند شاعرين في هذا القرن هما شلر وهيلدرن الذين تأثرا بفكرة المصير عند المسيحية. وقد تأثر هيجل بفكرة المصير عند هيلدرن حيث شغل هيجل بفكرة المصير في بداية حياته وحاول التوفيق بين فكرة المصير اليونانية وفكرة المصير المسيحية، وتظهر فكرة «حب المصير» في أعلى صورها لدى نيتشه «فحب المصير» عنده هو أن يجعل الإنسان قوله «نعم» للوجود - كما هو - وقوله «نعم» للوجود - كما يريده هو - شيئاً واحداً، أي أن يوحد بين إرادته وإرادة الوجود حتى يكون جوهر الاثنين واحداً.

ويأتي القرن العشرون لتصبح فكرة المصير من العمدة الرئيسية التي تقوم عليها فلسفة التاريخ، حيث عالجه الفيلسوف الألماني زمل في كتابه «نظرة في الحياة» حيث يرى أن المصير ليس قوة مطلقة للسيطرة كل الإطلاق يخضع لها الإنسان خضوعاً تاماً، فلا يكون موقفه بإزائها غير موقف سلبي خالص، وإنما المصير يحد من سلطة الذات أو الفرد. فلا بد من تعاون وثيق بين المصير من ناحية، والفرد من ناحية أخرى.

هكذا يستعرض د. بدوى تاريخ فكرة المصير قبل أن يعرض لنفس الفكرة لدى شبنجلر الذي أكد على التعارض بين فكرة المصير ومبدأ العلية، وأخذ على السابقين جميعاً أنهم لم يعترفوا بهذا التعارض اعترافاً قوياً واضحاً. والمتأمل لهذا الجزء من كتاب د. بدوى عن شبنجلر - وهو الجزء الأول من كتابه الذي قسمه إلى ثلاثة أجزاء - يتبين أن د. بدوى اهتم بأن يضع أفكار شبنجلر في سياقها التاريخي فالمثال السابق عن فكرة المصير يوضح لنا منهجه في معالجة الأفكار، الذي يتضح

فى التتبع التاريخى للفكرة وذلك حتى يبين للقارئ تطور الفكرة، والجديد الذى قدمه لنا الفيلسوف الذى يتناوله بالدراسة. والحقيقة أن هذه الطريقة فى دراسة الأفكار تفيد القارئ العادى وأيضاً الباحث المتخصص فى فهم الفيلسوف الذى يقرأ عنه أو يدرسه.

وفى الجزء الثانى من الكتاب الذى يعنونه د. بدوى بـ «روح الحضارة» يطرح الأفكار الأساسية لفلسفة التاريخ، هذه الأفكار التى يبدها شبنجلر أولاً بنقده لآراء السابقين عليه فى كتابه تدهور الغرب، حيث يرفض شبنجلر التقسيم الثلاثى من قديم ووسيط وحديث، وهو التقسيم الذى قال به معظم فلاسفة التاريخ السابقون عليه، والذى ظهرت فيه الحضارات القديمة باهتة بجوار الحضارات الحديثة، تلك الحضارات التى أخذت مساحة كبيرة من الزمن فى تاريخ الإنسان، يأتى فيلسوف التاريخ الأوروبى ليضعها فى مكان صغير من تاريخ العالم، ويعلى من شأن حضارته التى تأخذ من حيز الزمن قدراً ضئيلاً لا يتعدى المئات من السنين، بينما يولى الحضارات التى أخذت فى تحقيقها آلاف من السنين قدراً ضئيلاً من الاهتمام، لا يوافق شبنجلر على هذا الظلم للحضارات القديمة ويرى أن كل حضارة فى تاريخ الإنسان، لابد وأن تأخذ وضعها كاملاً على خريطة تاريخ الإنسان، فهى حضارات كان لها منجزاتها الخاصة وروحها الخاصة التى لا نستطيع أن نستبعداها فى زاوية بعيدة، بل نجلها ونضعها فى موضعها الصحيح.

والحقيقة أن د. بدوى وهو يعرض لهذه الجزئية من آراء فى فلسفة التاريخ نجده متحمساً لهذا رأى، ومعه كل الحق فى تحمسه هذا، فالغرور الذى انتاب فلاسفة التاريخ الأوروبيين وغيرهم من فلاسفة التاريخ جعلهم يضعون الحضارة الأوروبية فى المركز من تاريخ الإنسان، وهذا يعد ظلماً لكل الحضارات التى سبقت الحضارة الأوروبية الحديثة، سواء كانت حضارات شرقية قديمة، أو حضارة اليونان والرومان، أو حضارات العصر الوسيط كما يسمونها، بما فيها الحضارة العربية الإسلامية، التى كان لها دور كبير فى إحياء العلوم وبزوغ عصر النهضة فى أوروبا، والذى اعتمد إلى حد كبير على العلوم العربية الإسلامية، التى كان بها خلاصة العلوم

العربية والفارسية واليونانية أيضا، فكانت بذلك الجسر الذي عبر عليه الإنسان الأوروبي من عصور الظلام والتخلف إلى عصر النور والعلم والتقدم، الذي انتشر بعد ذلك في كل دول أوروبا التي حملت مشعل الحضارة بعد أن سقط من العرب في الأندلس.

إذا كان شبنجلر قد بدأ كتابه «تدهور الغرب» بعرضه للآراء السابقة عليه ونقده لهذه الآراء، فإن د. بدوى يبدأ عرضه لآراء شبنجلر بهذه الفكرة الأساسية في فلسفة شبنجلر وهي فكرة الروح الأولية أو الظاهرة الأولية، والحقيقة أن شبنجلر يستقى هذه الفكرة أساسا من الشاعر الألماني جيته وهو يذكر هذا صراحة في كتابه «تدهور الغرب» فهذه الفكرة من أعمق الأفكار التي اكتشفها جيته بوجوده المرفه في سياق التاريخ، فقد رأى في أنواع النبات المختلفة مظاهر عديدة ورموزا متنوعة لشيء واحد هو النبتة الأولية، كما رأى في ورقة الشجرة الصورة الأولية لكل الأعضاء النباتية، ثم اتخذ من هذه الظاهرة التي شاهدها في النبات رمزا للوجود العضوي الحى كله،^(١) فقال إن هذا القانون نفسه ينطبق على جميع الكائنات الحية. وذلك في الرسالة التي بعث بها إلى هرردر معلنا اكتشافه الجديد لقد أخذ شبنجلر هذه الفكرة (الروح الأولية أو الظاهرة الأولية) وطبقها على الحضارات، فهو يرى أن التاريخ «دراما تتألف من عدد من حضارات جبارة، تنبجس كل حضارة منها بقوة بدائية من تربة الإقليم الأم حيث تبقى مشدودة إليه برسوخ وثبات، طيلة دورة حياتها، وتطبع كل واحدة منها مادتها وجنسها البشرى وصورتها الخاصة بطابعها، ولكل واحدة من هذه الحضارات فكرتها وعواطفها وانفعالاتها الخاصة وإرادتها وشعورها وموتها الخاص بها. وهنا يوجد - حقا - ألوان وأضواء وحركات لم تكتشفها أية عين فكرية بعد. وهنا تزدهر الحضارات والشعوب واللغات والحقايق والآلهة والأصقاع وتهدم وتشيع، شأنها في ذلك شأن أشجار البلوط والصنوبر والزهر والأوراق، لكنه لا يوجد جنس بشرى يهرم ويشيخ.

إن لكل حضارة إمكاناتها الجديدة الخاصة بها للتعبير عن ذاتها، هذا التعبير الذي ينشأ وينضج وينحل، ولن يعود أبدا».

هذه الفكرة - فكرة الروح الأولية التي تميز كل حضارة من الحضارات على حدة - يذكرها شبنجلر في عدة مواضع من كتابه «تدهور الغرب» مؤكدا عليها وشارحا لها، موضحا كيف تتميز - مثلا - الموسيقى في كل حضارة من الحضارات عن الحضارة الأخرى، بما يكشف عن الروح الأولية لهذه الحضارة أو تلك . كيف تكشف أيضا طريقة البناء وطرز المعمار في كل حضارة عن روحها الأولية ، وكما يفصل شبنجلر في شرحه للروح الأولية لدى كل حضارة يذكر د . بدوى في كتابه عن شبنجلر كيف وجدت هذه الفكرة أولا عند جيته وكيف استقاها شبنجلر منه . حيث يعترف شبنجلر في كتابه «تدهور الغرب» بتأثير كل من جيته ونيتشه عليه^(٢) فهو يرى أن لجيته فلسفة من الطراز الأول . وموقفه بالنسبة إلى كنت كموقف أفلاطون بالنسبة إلى أرسطو ، فأفلاطون وجيته يمثلان فلسفة الصيرورة والوجود الحى . بينما أرسطو وكنت يمثلان فلسفة الثبات والوجود الآلى المتحجر ، الأولان يعتمدان على الوجدان ، أما الآخران فعلى التحليل والعقل^(٣) .»

شبنجلر هنا - وفقا لرأى د . بدوى - فيلسوف حدس يعتمد على الوجدان ، فهو أقرب للشاعر ولكنه ليس الشاعر الذى يلقي أبياتا من الشعر بل هو أقرب للشاعر في تأمله وإحساسه بالطبيعة من حوله ، هو لا يتأمل فى الطبيعة فقط ، ولكنه أيضا يتأمل فى التاريخ ويحاول أن يستقى من تأمله للطبيعة والتاريخ أوجه الشبه بينهما ، ولذلك كان التقاؤه الفكرى والروحى « بالشاعر الألمانى جوته الذى كان للوجدان عنده مكانة عالية ، ويبدو أن جيته كان له تأثير كبير على بعض الفلاسفة الألمان الذين كان يدخل فى حوار معهم ، وهذا ما يذكره هرذر أيضا والذى تبادل مع جوته الكثير من الرسائل حول موضوعات فلسفية عديدة . هل هذا يشكل الروح الخاصة بالحضارة الألمانية ، والتي تجعل مفكرها يتناولون بعض الموضوعات بروح واحدة ، فعلى الرغم من عدم معاصرة شبنجلر لجيته ، إلا أنه تأثر به فى أفكاره هل يشكل هذا خطأ متصلا بالروح الألمانية؟

لقد كان شبنجلر يرفض فكرة التواصل بين الحضارات ، حيث يرى أن لكل حضارة خصوصيتها التى تشكلها روحها الأولية كما ذكرنا من قبل ، ولكن هذا

الانقطاع لا ينطبق على الحضارة الواحدة فاللاحق فيها يتأثر بالسابق، وذلك لأنه نشأ في نفس المناخ متأثراً بروحه الحضارية الخاصة، وهذا يبدو واضحاً في تأثر أفكار شبنجلر بكل من جيته ونيتشه.

والسؤال الآن هل يوافق د. بدوى شبنجلر على القطيعة بين الحضارات المختلفة أم يتفق معه في أن لكل حضارة خصوصيتها التي تشكلها روحها الأولية وتجعلها بمثابة الجزيرة المنعزلة عن باقي الحضارات؟

الحقيقة أن بدوى في هذا الجزء من كتابه والذي عنوانه «روح الحضارة» يعرض لأفكار شبنجلر عن الحضارة بدءاً من فكرته عن الروح الأولية وفكرته عن التشكل الكاذب، التي تكرر أيضاً لفكرة خصوصية الحضارة، وتفسر التشابه الذي نراه أحياناً بين حضارة سابقة وأخرى لاحقة بأن هذا يحدث فقط في بداية ظهور الحضارة الجديدة حتى تقف على أقدامها، فنجدها تتخلص من كل ما أخذته من الحضارة القديمة أو تشكله وفقاً لروحها الخاصة، هو يعرض لأفكار شبنجلر لكون أن يبدى رأيه الخاص في هذه الأفكار أو يعقد بعض المقارنات بينه وبين غيره من الفلاسفة كما فعل وهو يعرض للجزء الأول من كتابه الذي عنوانه بالثورة الكوبرنيقية، وهذا لا يقلل من قيمة الكتاب الذي ظهر في وقت لم تظهر فيه أية معلومة عن شبنجلر في الكتابات العربية، سوى ترجمة لكتاب شبنجلر «الأعوام الحاسمة» حيث ظهر هذا الكتاب في عام ١٩٣٦، وهو كما نعرف لا يعتبر الكتاب الرئيسي لشبنجلر، وجاء كتاب د. بدوى عن شبنجلر عارضاً لآرائه وأفكاره في كتابه الرئيسي «تدهور الغرب» وهو ما كان يفتقده القارئ والدارس العربي وذلك في عام ١٩٤٥، وقد كان هذا الكتاب هو المرجع بعد ذلك لكل من د. أحمد محمود صبحي الذي أفرد فصلاً عن شبنجلر في كتابه «في فلسفة التاريخ» كما ظهر بعد ذلك مقال عن شبنجلر في مجلة (تراث الإنسانية) في الستينيات من هذا القرن، وبذلك يكون كتاب د. بدوى هو أول كتاب يعرض لفلسفة شبنجلر موصلاً أفكاره للقارئ العربي.

الميزة الثانية للكتاب هو أنه يحتوي في نهايته على بيبليوجرافية شارحة لكل مؤلفات شبنجلر، عناوينها وتواريخ صدورها، حرص فيها د. بدوى على أن يرتبها

تاريخيا من أول مؤلف له عن هيرقليطس سنة ١٩٠٤ وحتى آخر مؤلف له وهو إجابة عن سؤال وجه له عن «هل السلام العالمى ممكن؟» ونشر سنة ١٩٣٦، وهذه المؤلفات هى اثنا عشر مؤلفا ما بين كتب ومقالات نلحظ من عناوينها اهتمامه بالتاريخ والسياسة والشعر والقصة والصياغة، وغيرها من المعارف الإنسانية، التى تبدو كلها فى كتابه الأساسى «تدهور الغرب» الذى يعد صورة يعرض فيها لكل اهتمامات الإنسان من فن ، علوم، وثقافة، وسياسة، وبناء ، وموسيقى، والذى يكشف عن فيلسوف للتاريخ يهتم بكل ما أنجزه الإنسان فى تاريخه الطويل معطيا لكل حضارة أهميتها من التاريخ الإنسانى.

فكان د. بدوى كان له بهذا الكتاب فضل السبق فى عرض هذا الفيلسوف على القارئ والدارس العربى عرضا أميناً دون تدخل منه إلا فى بعض الأحيان، مشيراً إلى مقارنة بينه وبين غيره من الفلاسفة السابقين عليه أو المعاصرين له حول فكرة من الأفكار التى يطرحها، وبذلك تبدو أهمية هذا الكتاب فى كونه أول كتاب يتعرض بالدراسة لشبنجلر فى اللغة العربية ويساعد الباحث المتعمق فى الوصول إلى مفاتيح فهم هذا الفيلسوف .

يقع الكتاب فى ٢٤٣ صفحة من القطع الصغير وهو منشور بالقاهرة سنة ١٩٤٥ .
«الوجود نسيج الأضداد ومحور الأضداد الصيرورة والثبات، فإذا ساد الثبات كان الوجود هو الطبيعة، وإذا سادت الصيرورة كان الوجود هو التاريخ»

«الحياة وقائع وأحداث، أما الموت فمعارف وحقائق... والطبيعة مجموع حقائق، بينما التاريخ تيار وقائع».

«الاتجاه هو الزمان لأن الاتجاه معناه استحالة الإعادة واستحالة الإعادة حد الزمان» .

« الطبيعة سياقها القانون ورمزها الامتداد، بينما التاريخ سياقه المصير ورمزه الاتجاه، المكان - إذن - من شأن الطبيعة، أما الزمان فمن شأن التاريخ.»

«الطبيعة والتاريخ هما الإمكانيتان النهائيتان لتنظيم الوجود المحيط بنا في صورة كونية»

«عرض المذهب الحيوى عند برجسون ودريس ماهية الحياة إذن في المتتابع والمدة، أى فى الزمان، أما المادة فما هيته المكان»

الميزة الثالثة تبنى بدوى لأفكاره وتطبيقها على الحضارة العربية الإسلامية.

الهوامش:

- ١- أسوالد شبنجار : تدهور الحضارة الغربية، ترجمة أحمد الشيباني، منشورات دار مكتبة الحياة.
- ٢- تدهور الغرب، ترجمة الشيباني مرجع سابق ص ٢٨.
- ٣- شبنجار ، د بدوى مرجع سابق ص ٦٦.